حنان باشا

HANAN BASHA

للرّحيل طقوسٌ أخرى



www.dardjlah.com

قصص قصيرة

للرحيل طقوس أخرى

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠١٤/٥/٢٣٠٧)

٨١٣,٩

حسن ، حنان محمود عبد الكريم
للرحيل طقوس اخرى/حنان محمود عبد الكريم حسن
.-عمان: المؤلف ،٢٠١٤ .
(١٦٢)ص

ر . إ. : ٢٣٠٧ / ٥ / ٢٠١٤
الواصفات : /القصص العربية//العصرالحديث/

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الغلاف والإخراج الداخلي: محمد خضير
khdairart@yahoo.com



عمان - شارع الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري
تلفاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦٤٧٥٥٠ - خلوي: ٠٠٩٦٢٧٩٥٣٦٥٧٦٧
ص.ب: ٧١٢٧٧٣ عمان ١١١٧١ - الأردن
E-mail: dardjlah@yahoo.com
www.dardjlah.com

Hanan Basha

حنان باشا

للرحيل طقوس أخرى

قصص قصيرة

الإهداء...

«لروحك أبي»
أبي كما أذكره شاباً لم يطرق الشيب شعره..
ما زال يسلب لبّي عطره
أبي وقد حضَرتْ ذكراه
تمنيت لو أخذتُ غفوةً بين ذراعيه
لعَمْري هذا كلُّ ما تمنيته!

***

تزرعين في صحراء روحي ورود أمل
عناقيد فرح حتى باتت جنائن..
لقلبك الزاخر أختي «نهاية باشا».
إليكم أهدي هذه الحروف.. بعض من روحي وحفنة من الياسمين.

مقدمة...

لحنان باشا قلمٌ عطِش.. كأنما هو ريشة فنّان يختار المنمنمات ويشكّلها بجمال.. تغوص في تفاصيل الحياة، تستحثُ الدمع، وتزرع البسمات.

أحياناً.. يحلو لها أن تتركك في ذهول، فتنظر في تلكم العلاقة المسمّاة (حباً) وتتأمّل فيه.. ويطول التساؤل..

خصوصيات بين المرأة والرجل في عالمنا العربي، وبيئتنا الشرقية؛ تتعرض فيها الأنثى في كل يوم لفرح مفاجئ أو وخز شفيف أو ظلم دونما قصد، أو عنف جارف، لتكتشف أنها -أنثى الحبّ- تلتسع بجذوة الحب، ويذوب قلبها كشمعة في كل يوم!

ولها طقوسٌ أخرى للرحيل.

في هذه المقاطع تروح الحياة وتجيء على وجع وعلى مضض وعلى أمل..

فهنيئاً لنا بكِ يا حنان.. وبقلمك الثّري.

الدكتورة زهراء غضبان

أما قبل...

هل يُعقل أن يكون استبصاراً لزمن قادم مثلاً؟
وكانت كمن يُعدُّ العدّةَ لاستقبال ذلك الجرس الذي قد يُقرع في أية لحظة معلناً وصول أكاليل الزهر المرويّ بماء الندىٰ المغمس بدموع الخوف والتوجس.
كلّ شيء فيه يعلن عن قدوم زمن الاستقلال، وهل تكون تلك حرية مُشتهاة من قيدٍ غير مرئيّ؟... ربما!
لكنها كانت ترىٰ في قيوده توحّداً منشوداً ونشوةً مبتغاة.
أما هو؛ كان يرىٰ في قيودها أسراً لا بدّ وأن يتحرّر منه.
وهل تعتقهُ من ضَنَك عيشٍ باتَ يثقلُ كاهلَ أيامه وهي تنزع إلىٰ قوقعة ملَّ من عزلتها والتفافها علىٰ ذاتها.
وهل يشرح الحبّ نفسه؟ هل يحتاج إلىٰ مراسم وطقوس؟
هل تعيد الشموع المتقدّة جذوته، وهل تضيء سُبحته حروف الحب المنتقاة؟ دعونا نرىٰ...

حنان باشا

8

سرابٌ حيث ينتمي ..

منشورة في مجلّة مأدبا/ العدد ٣ للعام ٢٠١٣م

9

من كان ليطيقَ مثل ذلك الحرّ!

نسمةٌ ساحرةٌ تلك التي كانت تدفعُ عباءَةَ الليل بلمسة حريرية، وتمسحُ بحنان على الأنامل التي تدفعُ عربة الصغير وهي تحدّثهُ بحبّ: ما رأيك، أليس المكان جميلاً؟

انبعثت أضواءُ المدينة الصغيرة، وعلا صوت الأولاد وهم يتقافزون بفرح، ويتبعثرون كأوراق الخريف. قال لها:

– ماما هل تسمحين لي باللعب!

كانت متعبةً، وليست لديها رغبة بالجدال، اقتربا من السور الحديدي وهو مدفوع بفرحة اللعب والقفز.

كانت تقول في نفسها: لا وقتَ الآن، ما زال عليّ شراءُ باقي الحاجات وانتقاؤها، ستتجاوزُ الساعةُ العاشرةَ مساء، وهذا كثيرٌ على أمّ أمضت الليلَ تعاني من أرقٍ وآلام شديدة في المعدة! ذلك الولدُ كان يخبر والده أنه جاهزٌ لالتقاط الصورة، وكان يقومُ بعدّة حركات مضحكة.

ليس مستغرباً أن يقوم أبٌ بمراقبة طفله، وأن يستغرقَ

عميقاً بتأمّله، ولكن الغريب أن تلك الهيئة .. ذلك الرأسَ الأشيبَ، النظارة، طريقةَ ارتداء الملابس، كلّ شيء فيه بدا مألوفاً.

حتىٰ ما بقي من الصوت عبر الأثير ..

لكأنهُ هو: أجل وفي كل خطوة اقتراب كان ينبعث من الماضي ويتشكل ضبابُ الذكرىٰ ليرسمَ محياه.

كانت تراهُ وكأنها لا تراه..

في اللحظة ذاتها شيء ما دفعه للاستدارة نحوها وهي تقتربُ من السور، ترفعُ عربة صغيرها وتشدُّ الآخر كي يبقىٰ إلىٰ جوارها علىٰ الرصيف، وعلىٰ مقعده الخشبيِّ؛ جلس وحدّق بها، كأنه صُدم هي ذاتها وليست امرأةً أخرىٰ!

تجمّدت ملامحُه، كان يعبث دون قصد بكاميرته، كمن أخذتْه صعقة كهرباء.

تحرك فجأة، أدار وجهَه وتابع تأمُّل صغيره، وعاد إلىٰ حيث كانت تتقدم، نظر من خلالها ورأىٰ جزءاً من ماضيه؛ حيث

كانت تجلس علىٰ عرش قلبه .. ولكن لم يكن لهذا التتويج أن يكون خارج الضلوع، فالقدر لم يكتب لهما نصيبًا.

قلبه ما كان ليحتمل، ما زالت فاتنة!

هي وصغيرها.. هو وصغيره في المكان ذاته.

حديقةُ ألعاب، وقد يتصادقُ الصغارُ صدفة! أخذ يفكر:

– هل ستقتربُ أكثر، هل ستلقي عليَّ السلام؟

كانت تراقب ذلك الرأسَ المشتعلَ شيباً وتقول:

– ياااه كم يبدو كبيراً في السن! لو كنت زوجته لبدا الفرقُ واضحًا، هل كنت لأرغب بذلك؟

لوهلة توقفتْ – كاد صغيرُها أن يقنعها– ولكنها استدارت بقوة، لحظةَ قرر معرفةَ إن كانت ترغب بالدخول، فكرتْ «سيكون الموقف أكثر صعوبة».

تحدثت بصوت عالٍ: ليس المكان جميلاً كما يبدو، حبيبي سآخذُكَ إلىٰ الألعابِ في يوم آخر، لا وقت لدينا الآن.

وتابعت تحثّ الخطىٰ كمن يخشىٰ لسعة عقرب.

كانت منزعجةً بعض الشيء.. ولكن نسمة حانية غسلت كلّ قلق هزّها، وتابعت مع صغارها وهي تهتف: سأصنع لكم غدًا طبق حلوىٰ، ما رأيكم؟

كانت تعلم جيدًا أن صورتها مرتسمة في أحداقه المندهشة، وقد فضّلت الرحيل إلىٰ حيث لا يكون!

13

طاعنٌ في الحزن...

14

كان ذلك النهار شاقًا جدًا على رجل أمضى يومه يسعى خلف لقمة عيشٍ لا تأتي بسهولة، فهو يجلس تحت لهيب الشمس أو تحتً دموع المطر ويطرق الحجر ينقشه، لتبدو منازل عمان جميلة مشرقة بحجرها الأبيض الفاتن.

بعد نهار مُضنٍ، يعود مع مغيب شمس أخذتّ معها عرق نهار طويل ومضت. يعود ومعه ما جاد به الربّ على صغار ينتظرون والدًا يحنو عليهم ويحتويهم بدفء ذراعيه؛ ويقدّم لهم أنصاف حبات التفاح المعدودات، وطبقًا من الحلوى، ويضع في يد كلٍّ منهم مصروف الغد.

لكنه اليوم قرر أن يشتري لكلٍّ منهم حذاءً جديدًا؛ إذ ألحّ عليه الصغير منذ مدة أنّ حذاءه تمزّق، ووحل الطريق يتسرب إليه من الشقوق.

أخذ يعمل بهمّة كي ينتهي ليأخذ نصيبه من ذلك اليوم، ويشعر بسعادة خفية يغشاها دمع عيون دافئ، لأب وسع قلبه الكون وهو يتخيل سعادة صغاره وهم يتخاطفون

هدايا العيد.

لكن هذه الليلة كانت مختلفة؛ فأكياس الحلوىٰ والفاكهة... هدايا العيد لم تعرف طريق البيت ولن تعرفه بعد اليوم. فاليد التي حملت ما حملت؛ تاهت علىٰ رصيف الضياع والفراق الذي فرض نفسه ذات مساء، تأبّط الحزن يداً بيد عندما ذاب صلصال الجسد تحت ثقل الرافعة التي هوت فجأة، وأطاحت به. فكفّت اليد المتعرّقة عن الطَرْق، فسقطت جذلىٰ، وألقت معاولها كورقة توت حلّ خريفها فجأة.

دونه البيت صمت مطبق لا حياة فيه وقد مضىٰ بعيداً.

وستقبع ذكراه علىٰ رصيف الانتظار في محطات الأمل. فهل سيرجع ؟

تعود الحافلة دونه... ويستمر وجع الغياب.

16

على جذوة حب..

إلى روح الشاعر «مؤيد العتيلي» لعلّه يستريح...

ما زال المئزر الورديّ ملقىٰ علىٰ طرف السرير الذي ازدان هو أيضًا بنقوش وردية كأنّه حديقة زهر غنّاء، وقد تكوّم علىٰ بعضه كأنه يخشىٰ الوحدة.

الستارة تتكئ علىٰ الحائط كأنّها تعبت من الوقوف جانبًا، وودّت لو أخذت غفوة، إذ بعد أن ضجّ المكان بساكنيه حلّ الصمت واستوطنت فيه الرهبة.

زجاجة عطر شبه مغلقة، وقد استراح الغطاء إلىٰ زاوية المرآة وكأنّه يهامسها: أتسمعين صدىٰ وشوشاتها وهي تدندن وترسم أجمل عيون لصبية تدعىٰ «تغريد»؟

أشياؤها المتناثرة.. هنا وهناك.

فردة حذاء منزليّ اتخذت زاوية غير مفهومة، كأنّها تودّ مغادرة المكان ولكنّها سقطت سهوًا.

«تغريد» لم تكن يومًا فوضوية، بل كانت أكثر النساء حرصًا علىٰ نظافة بيتها ومقتنياتها.

صوت رضيع ينطلق من غرفة أخرىٰ، هرول إليه .. مدّ لَه

ذراعين مثقلتين أوهنهما التعب وهمس: كفى حبيبي، ومن فوره تناول زجاجة حليبٍ دافئ كان قد حضّرها مسبقًا خشية استيقاظه فجأة.

يجد الصغير صعوبة في تقبل طعم الحليب الجديد، لكنّ الجوع لا يترك له مناصًا فلا بد وأن يأكل، يلتهمه على مضض ويرنو بعينه نحو والده، يحمل بين دمعاته الندية سؤالاً حائرًا:

أين هي؟ أينها ؟ أريدها هي!

أحبّك بابا ولكنّني أتوق إليها، إلى حضنها، إلى قلبها النابض بدفء عجيب، أحتاج صدرها تلقمني أطيب طعام وأشهاه.

ذلك الأبيض اللذيذ الذي ينساب مع النبضات وكأنّه شراب الجنة مع نوتة موسيقا قلبها.

يمدُّ يده يتحسّس وجه أبيه وقد فزَع من ماء ساخنٍ انهال على وجهه وتسلّلت قطراته مع الحليب الذي ما زال طعمه

غير مستساغ!

زفرة حارّة تلك التي أطلقها «سيف» فلفحت وجه الصغير «عمر» الذي لم يكن ليفهم سبب دموع والده!

يكتفي بنصف الزجاجة، ويشيح بوجهه عنها. لكنّه لا يتوقف عن التساؤل: أين ذهبتِ وتركتِني لِمَ لا أراها في المكان؟

أنا لا أعرف اسمها، ولكني أناديها «ممّا أو ماما».

لا أشتمُّ عبقها الآن!

كانت دائماً تدغدغني بأنامل من حرير وهي تنزع عني ثيابي. وأظلّ أعاندها يمنة ويسرة، وأهرب منها، ولا أترك لها مجالاً إلا وضايقتها فيه.

ولكنها كانت تبتسم وتهمس «بس يا عمري» تريد أن تزعج ماما؟ سأريك الآن كيف هو الإزعاج، وتبدأ بالكركرة حتى أكاد أختنق من الاهتزاز والضحك. آه اشتقت لها، متى تطل عليّ ليشرق المكان بوجهها الصبوح الفاتن؟ متى؟

ما زال يحملني على كتفيه ويهدهد عذاباتي.. فجأة تغيب الكلمات والنداءات تحت ربتات يده الحانية، ويتسلل العتم رويدًا رويدًا وأنسى كل شيء بمجرد أن ألمح طيفها النوراني في حلم تناديني تعال يا «عمر» لنلهو قليلاً أنا وأنت.

ما أجمله من وقت أمضيه معها! إنها تشعرني دائمًا بالأمان والحب.. لا أريد شيئاً آخر سواها. لحظات ويسترسل الجميل في غفوة لذيذة وترحل هواجسه إلى أماكن بعيدة.

«سيف» تنتابه رجفة تتبعها حرارة مفاجئة، يلقي بنفسه على أقرب كنبه، تتقاطر حبات العرق على صدغيه تعانق دموعه المنسابة بلا توقف، تمتد يده نحو صورة موضوعة داخل إطار مذهّب منحوت.. كانت مشعة كأنها أخت للقمر، عروس متألقة وهّاجة تتسربل بالنور فتَهب بعضه لمن حولها عن طيب خاطر، وقد عانقت يده بخجل.

كلُّ شيء هنا يشتاقها، ما زالت الأشياء على حالها تحمل رائحة أصابعها ولمساتها، كلُّ شيء يحنّ إليها، أدواتها لم

تعد تُسمع، صوت أوانيها وهي تصطفُ بتراصٍ مألوف يرافقه صوت المذياع، وزائرتها الصباحية «فيروز» وربما كان يطيب لتغريد أن تقدم لها فنجانًا من القهوة.

ولكن الصمت المطبق صار عنوانًا للمكان، فكل شيء واجم ينتظر عودتها. وحتى أوراقها المنزوية على طاولة ضمّت حاسوبها الشخصيّ، أقلامها، وملاحظاتها.

كانت جادّة في إكمال شهادة الماجستير، وقد تقدمت لإجازة من العمل، تحلم بتقدير ممتاز. كما أنها كانت قد بدأت بالفعل برواية جديدة.. حمل الأوراق وحدّق بالخط الجميل الذي حمل لمسة أُنثوية وقرأ بعض العبارات المتداخلة هنا وهناك: «يوم الخميس زيارة ماما، الاتصال ب «منار» تأكيدًا لموعد التسوق، الجمعة عيد ميلاد سيف.. فجأة غابت الحروف واختلطت، وتداخل الحبر حتى اهتزت شجون الورقة فذابت وجدًا وألمًا مع زفراته، وقد تصدّعت نوافذ القلب وهو يشتمُّ أريجها..

كانت تخطط لعمل حفلة عيد ميلاد له، هي لا تنسىٰ شيئًا يخصه أبدًا، وكانت تتساءل: أي شيء يسعده يا ترىٰ؟
هلْ تعمّدت أن تقدّم له أغرب هدية من امرأة عاشقة لحبيبها في عيد ميلاده!
كتبتْ: ومن الليل سأتخذ ركْنًا قصيًا.. عسانا نتهجّد بقصيدة سوياً.. هُزّ إليّ بجذع روحك، واغمرني بقبلٍ شهية..
بذراعك اغمرني، وامسح بشفاهكِ دمعيَ النّديُّ.. في غيابك حارَ وجْدي، وانكفأت أشرعتي، وعفّت الحروف فلن أكلم اليوم إنسيّاً..
قلّب بعض الأوراق، وأخذ يقرأ ويتخيّل أنّ «تغريد» تهمس بصوت يشبه وقع المطر.
كم كانت رقيقة !! ترىٰ هل تعجلت تغريد.. أم أن القدر سبقها وكانت خطاه أقوىٰ وأسرع!
لِمَ فعلتِ ذلك يا منية الروح، يا حبّة الفؤاد؟ لِمَ استعجلت الرحيل.. وتركتني لشوقٍ لا يعتكف لوجدٍ لا تذبل جذوته

ولا تنطفِئ ذبالته! لقلب صبٍ موجوع؟ لدموع لا تعرف نهاية؟ لحياة باتت جوفاءً دونكِ فترحلين ولمّا نبدأ بعد!
يدور «سيف» في المكان كليثٍ مضّته الوحدة والسكون.. تراه فجأة في غرفة الصغير يهدهد سريره، أو على باب خزانتها يعانق ملابسها، ويغرق في ذكريات محمومة.. أو منكبًا على سجادته يغسلها بدموعه، أو يضم مخدتها ويغفو، ويتملكه الوهم أنه يعتصرها بين ذراعيه، وأنها بين أحضانه.. وكلما بهتت رائحة المخدة، قام برش قطرات من عطرها ليتجدد حضورها الذي هيمن على البيت.
رفضه مستمر لمن حوله أن يقوموا بغسل المكان أو ترتيبه. وحتى عندما اقترحت والدته ضرورة وضع ملابسها في حقيبة وإقصائها، ورفضها أن يظل الحال كما هو عليه.. خشية على عقله، ولإقناعه بأن الأموات لا يعودون!
وقد جُنّ جنونها عندما همس: قد تعود تغريد يا أمي!
فهل تجد المكان خاليًا منها! ماذا ستقول عني.. خائن!

تتنهّد الأمّ بحسرة، وتأخذها شفقة وحب جارفان لولدها المفجوع بحبيبته تغريد ..

كيف لصباحاتي أن تكون دونك ؟ كيف للشمس أن تشرق على دنيا أنتِ لست فيها؟ ويحك.. تعاهدنا أن نشيخ معًا، أن ننجب العديد من الصغار، هل اكتفيتِ بعمر؟

«عمر» كيف تخليتِ عنه هكذا؟ أهانَ عليك يا تغريد؟ وأنا هل هنتُ عليك؟ من سيدرّبه على المشي؟ على إمساك الملعقة دون مساعدة ؟ من سيعلمه الحروف؟ من سيصحَبه إلى الروضة؟ كيف سيشارك أصدقاءه في عيد الأم؟ كيف سيغني -يامو يا ست الحبايب- وقد حُرم من كلمة ماما! كيف لرجل أن يحيا دون روح؟ أوّاه يا تغريد.. ما أصعب غيابك!

وكأنّ المكان لم يعد يحتمل المزيد من الزفرات الحارّة، فتهب نسمات باردة تحاول دفع حرارة القلب الملهوف، وتنسكب على نفسه بردًا وسلامًا.

يناديه عمر مجددًا، وكأنه يقول: لا تتركني أنت أيضًا يا «بابا» أحتاجك.

يحدّق سيف بصغيره الذي بدا يشبه أمّه أكثر.

هو قطعة من تغريد.. قدّمته له هدية قبل رحيلها المفاجئ.

وكأنّها كانتْ تعلم أنَّ رحلتها في الحياة ليست طويلة..

لكن سيفًا كان يعلم جيدًا.. أنّ هناك «عمر» وأن مشواره طويل.

على فتيل ..

ليست إلّا السابعة مساءً، وماذا في ذلك؟ لطالما كانت تخرج في وقت متأخر لا تخشى شيئًا! لكن ليالي عمّان لم تعدْ كما السابق، وآذار ما زال يغط في عتمة مرعبة، ولا زال يرتدي حلّة الشتاء.

الشوارع مقفرة حدّ الكآبة، والجميع آثر الاختباء قرب مدفأة حمراء.

وقد غرق البعض بين الأوراق أو خلف شاشات الحواسيب يحلّقون في فضاءات من الوهم والأكاذيب، أو عوالم من المعرفة.

البرد قارس، وهذا الجاكيت الصوفي لا يكفي ليمنع نسمات الهواء الباردة من التغلغل لتهزّ كيانها برعشة. تلملم نفسها المبعثرة وتضم أكفّها في محاولة يائسة للدفء.

قد تفيد بعض الهرولة ! ترىٰ هل ذلك لجعل الخافق بوجع يرسل مزيداً من الحرارة في العروق، أم أنّه خوف مستتر من غرباء قد تراودهم نزوة شيطان وغواية؟ أم هي محاولة

للتخلص من فكرة أنه قد يكترث ولو للحظة لمعرفة سبب خروجها ليلاً وهو غارق بدفء مقعده! وكأنّه لم يسمع صوت الباب وهو ينغلق خلف ظل الجاكيت الأسود.

تركض على مفترق طريق وكلّها رغبة وحلم أن تكون السيارة القادمة المتوقفة إلى جوارها سيارته وقد لحق بها حبًا.. شفقة.. خوفًا من ظلمة الطريق ووحشته ولكن عبثًا لم يكن هو ولن يكون!

تمارس طقوس الطريق كمحترفة تحثّ خطاها، تنفث ضباب أنفاسها، ويغادر الفرح روحها، ويقشعرّ الأمل ويتعلق بطرف نجمة بعيدة آثرت الوحدة في فضاء رحب معتم.

انتهى المؤتمر الصحفي على خير وحان وقت العودة.. ما أن يدور المفتاح ويغلق الباب، حتى تبدأ الأقنعة بالتساقط الواحد تلو الآخر، وتأخذ الابتسامة غفوة قد يطول أمدها.. تلقي حقيبتها وتلمح ظلاً يتكئ في الزاوية فتتوجس شرّاً. ما تبقى من المساء لن يمضي على خير.. هكذا بدا لها، سيبدأ

بالتحقيق المعتاد وستتراشق أسهم الاستهزاء حولها ككرات
حُذفت من جهنم.

وعادت الدكتورة أخيرًا لبيتها الخالي المعتم علّها توقد فيه
شمعة!

تنهّدت بقوة وأردفت: أتدري! لن أسمح لك أن تعكّر
صفوي، ولن تكون سبباً في قلقي. أنا اليوم سعيدة بما
أنجزت..

يزداد صوته حدّة وهو يهتف بصوت أشبه بالعويل:
طبعًا.. وهل يهمّك سوى نجاحاتك؟
ظهورك المستمر على الفضائيات؟
حفلاتك التي لا تنتهي؟
والجوائز التي تنهمر عليك كالمطر؟
ولأيّ شيء؟

انهارت تخلع حذاءها الذي بدأ يتعبها جدًا ورمته..
عبَستْ بحيرَةٍ: انتظرتك.. لماذا لم تأتِ؟ بحثت عنك بين

الحضور، كم تمنيت لو كنتَ معي!

قاطعها بقسوة: لِمَ؟ ليُشار إليّ بأطراف الأصابع؟ زوج الدكتورة الناشطة هنا! شكرًا.. لست بشوق للظهور كمرافق في الجرائد!

«منال» كانت تنصت إليه، ولا تصدق المرارة التي يتحدّث بها!

ولأي سبب -ليست غيرة، فهو رجل ناجح جدًا- لو كانت تملك بعض القوة لتغادر الصالة حيث يجلس لفعلت، ولكنها التصقت بالمقعد كمن خُيِّط جلده مع القماش، فتجمّدت حيث هي:

تتمنى انكساري؟ هل مددت يدك عندما تعثرت وسقطت؟! لا أذكر أنك أنقذتني، وقد أصبحتُ في عداد الأموات بل وربما كنتَ أول الشامتين لحظة سقوطي. هل كنت يوماً حبيبتك؟

قال لها بتبجّح: ليس عندي ما أقوله لك، كنتِ تعتلين

نجمة وكبرياؤك الزائف أطاح بك ! لستِ أكثر من امرأة بائسة تظن نفسها «موناليزا» .. وهيهات أن تكوني كذلك! وكمن يلقي قنبلة ولا يكترث لعدد الجرحى الذين تساقطوا تباعًا لفعلته..

قرّر أن يتّخذ مكانه إلى النافذة التي ألقت الضوء على وجهه المتكدر.. وزاوية فمه المشدود..

كم كانت مستاءة منه! صاحت كمن يطلق أنفاسه الأخيرة: ياااه، يا لبرودك، كل حطب العالم لا يكفي لإشاعة الدفء من حولك! لا شيء يروي ظمأك.. لا شيء يكفيك أبدًا، كلُّ شيء يفقد هالته معك أنت غريب الأطوار، مللت برودك..

كفاك جحودًا!

ترمي بيدها إلى الوراء، كمن يحاول إزاحة عبء ثقيل ويعجز.

يرتفع حاجباه بإعجاب، غلّفته سخرية لاذعة مسكونة

بصمت مطبق، كان يشعل سيجارة فيتوهج بريقها على جمر عينين خبا فيهما الحب، أو توارى خلف ستائر كثيفة مُسدلة لم تسمح لمساقط الضوء أنّ تستبيح المكان.. ويسترسل بلا اكتراث:

أجل يا قوم.. إنها الدكتورة فلنصفّق لها وقد عادت أخيرًا لبيتها المعتم! فلتذهبي للنوم وكُفّي عن الهُراء.

همَستّ بوجع: إياك أن تفعل!

يتفصّد من بين الضلوع.. يا لهذا العشق الموؤود ! لغزٌ حمّال أوجهٍ أنت!

بعد رحلةِ غرقٍ تاهتّ فيها الأشرعة من شطوط الرمل إلى ضفاف الصخر المقيم، تلوذ به جذلى وتلقي مجاذيفها، تمتشّق روحه الضائعة.. ويترفّق بها وهج حب يتساقط كالندى في آنية الضوء ممهورة بالشوق، سارت إليه ومدت ذراعيها تحتضن الجذع وتلقي برأسها على خافق أرسى مراكبه على كتف الصفصاف مكبلا بأتون العناق.. وكحجر أتقن

الوقوف أعوامه الماضية في عرزالٍ هزّه فيض التنور كعذب فرات.

لانت قسماته.. وسرىٰ الدفء بين ضلوعه مخضلاً بخضرته.. وارف الظلال.. يتقطّر في السفوح ريّاناً..

تهمس بعطش: تمنيت لو كنت معي! بحثت عنك، كذبت عليك، أنا لا شيء دونك. أحتاجك إلىٰ جواري.. لا تبتعد ثانية.

يختفي الضجيج، وتتوجس الوساوس خيفة عند كل زاوية ومفترق، ويدفعها الضوء فتتوارىٰ إلىٰ مثواها الأخير!

يفرغ صبره في أقداح من بلور.. ويستمع إليها للمرة الأولىٰ بشغف، يضمّها كمن يخشىٰ هبّة ريح غادرة تقتلعها من بين ضلوعه، فيعتصرها شوقاً.. ولا يصدّق كيف علت حمم براكين غضبه وكيف تساقط البَرَد فجأة فهدأت نار شبّت وعلت..

حتىٰ كادت تحرق الأخضر واليابس بينهما كشمعدان يذوب

علىٰ موائد من وجع، يشبه حزن البنفسج إذا ما ترنّح.
تناجيه.. علىٰ جناح حلم:
أغمضت عيني علّني ألتقيك علىٰ جليد، وقفنا ننظر بشَذَر فأذبناهُ من وهج جفاء حلّق بنا كنوارسَ مكسورة الجناح، وتصدّعت مراكب الشوق قلقاً من مزيد!
أفسحت لك مكانًا في سريري، ولكنّك فضّلت البقاء وحيدًا كان المكان بشوق يناديك لكنك تجاهلت النداء..
وظلّت الوحشة تسكن المكان وأطيافك المتمردة تجوب العتمة.. تمرّ بي، ولا تلقي السلام!
يتهدّج الوجع.. لا أدري كيف يطاوعك قلبك علىٰ البقاء بعيدًا؟ أتسلّق الوقت.. أتحامل علىٰ نفسي كي ألحق بك وقد أدركك.. لكن عقارب الساعة لا تنتظرني! وحتىٰ تدرك الأمر تكاد أن لا تدركني، لقد فاتك القطار ولم يتبقّ إلا رفات ذكرىٰ مني. هل ترضى بذلك؟ بربّك أخبرني حقيقة الأمر.

تنهّد بقوة وحدّق بها: أريد طفلاً ببساطة!

دفعته في صدره، وأجهشت ببكاء حاد.

فقط طفلاً واحدًا! أهذا ما يزعجك؟

كنت انتظرك بفارغ الصبر كي أخبرك أني حامل! لم تحضر..

ولم تعلم أنني قدمت استقالتي.

عندما يصغُر الكون ويكبر فجأة، لا تسلْ عن ذلك إلا عاشقاً ملَكتهُ ذات سعادة: وراح يصرخ فرحاً.. ندماً.. أشياء كثيرة تعتمل في نفسه، كبرياؤه غير المبرر..

تعنُّته، صمته.. لا يعرف كيف يردم كل ذلك!

لكنه الآن لا يتوق إلا لعناق..

وقد بلغ سدرة منتهى الحب.

36

لا يُتقن الحُب ..

إهداء إلى صديقتي «شهرزاد» القصيدة

ما كان للصبح أن يتنفس إلا ياسمينًا وطهرًا. وما كان لمدينة عمّان إلّا أن تنثر جدائلها فوق جبالها السبعة. وتفرد عباءتها المقصّبة بخيوط من ذهب.. وما كان لـ «حبيب[1]» إلّا أن يتغنى بها شعرًا «عمان يا حنّة على حنّة..».

يتجلّى الصباح بنقوش ربيعية. ولصباح عمّان وجهٌ بهيج وحزين في آن معًا كأنه «الموناليزا[2]»، بابتسامة حائرة ودمع ترقرق في المقل، يحمل أوجاعاً عجزت عن محاكاتها الألسن، فهلّا كتبتَ أيها القلم ولونتِ أيتها الريشة؟

ربما مررتِ على الجميع يا أنفاس عمّان الدافئة، لكنك لم تمرّي على نوافذهم تطرقين بأطراف أناملك الذهبية.. تدغدغين العيون الناعسة أن أفيقي يا جميلة المحيّا.

حان الوقت لصنع كوب من الشاي ومناقيش الزعتر ولفائف الجبن. وإن لم تسارعي ربما سيحصل مكروه ولن يمضي النهار كما يجب. إن امرأة تسكن قلعة تخضع لأوامر

جنرال لا تملك سبيلاً إلا للسمع والطاعة.
كيف يمكن للجمال أن يوصَف في عيون استقرت فيها زرقة البحر؟ ولوجنات سرق التفاح حمرته منها ؟! ربما خفر الجوري، رغم جرأته ورغبته الشديدة للحياة، وهو يتفتح بوداعة طفلة اكتشفت انعكاس صورتها على حبات الندى والطّل. رغم أسوار الحديقة العالية وشجرة التوت، الأمّ التي افترشت المكان وظللته بحنان.. معانقة النوافذ. الياسمين الغافي منذ غروب الأمس، وهو يتثاءب بكسل ويرمش لضوئها الحاني فيتضوع ويرسل تحياته لساكني المكان وعابري الطريق. فيأخذ كل منهم جرعة كللت أكواب الشاي الأخضر بعبق الياسمين.
هو صباح تسلّل ليكون سيد الطرقات، ويمسح على أسطح المنازل بلمسة ضوء تدفع آخر عناق مستميت للعتمة وترحل رغما عنها. يحاول أن يغسل صدأ القلوب المقيتة ويحاول جاهدًا علّه يسربل النور في سرمدي الجحود..

ولكن هيهات لخيوط حيكت في الظلمة أن تُنقض بسهولة..
فيا له من تعقيد ووعيد!

وقفت تمسح وجهها باسم الرحمن ودعتْ: «أصبحنا وأصبح الملك لله، الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور».

ورغم كلّ شيء، فتحت ذراعيها وضمّت الكون في عناق يشبه عناق الزنابق. وبدأت رحلة الذهاب إلى المطبخ، صوت الماء وهو يغلي يضفي موسيقا تشبه قرع طبول إفريقية لرقصة بوهيمية.

ويعلو البخار ويغسل الخزائن وما حولها، وهو يتهادى إلى الأعلى. وعندما يعجز عن الاستمرار في معراجه يلتصق بالجدار، ليهوي ثانية كدموع انحدرت على غير ميعاد.

وفوضى صوت الأطباق وهي تصطف بحذر شديد.

تهرع لتحضير الحمام لسيد البيت قبل أن يبدأ رحلة عبوسه المعتاد وهمهماته غير المفهومة -لا لسبب - ؟! تحمل مناشفه

وتعلقها حيث يستطيع تناولها، أدوات الحلاقة.. العطر..
ثيابه الداخلية المطوية بعناية.
قميص أبيض، وربطة عنق مقلّمة، «بدلة» كحلّية، حذاء
لامع تستطيع أن ترىٰ فيه انعكاس صورتك كظل جميل.
كل شيء جاهز.. تعود لإطفاء المنبّه الذي تعالىٰ صوته خشية
أن يتكدّر مزاجه.. تسارع لإطفائه قسرًا وقبل أن يحوّله إلىٰ
أشلاء؛ وكأنه طفل صغير يثير القلق والضجيج.
تهرول مسرعة.. كلمات كثيرة تتراكم متزاحمة تكاد تعرقل
مسيرتها. كم تخشىٰ أن تهمس بها أو تُفلت منها علىٰ حين
غرّة. كأنّها قطع أثاث مرمية هنا وهناك!
وتهلع فزعًا وكأنّه يرىٰ ما تراه ويسمع ما تفكر به، وكأنّه
سيبدأ بالصراخ والشتم:
لِمَ كلّ هذه الكراكيب تتناثر في منزلي؟ ماذا تفعلين منذ
الصباح.. تخربشين كالعادة، أم في أحضان أمّك تقبعين؟
تباً لهذا المنزل البغيض. تنتابها حيرة! لِمَ هو دائمًا حانق

وكئيب. أي شيء يدفعه للبقاء هكذا رغم كل محاولاتها المستميتة لتهدئته وإسعاده؛ آه .. قسمة ونصيب.

أيُّ رجلٌ ترىٰ هو «حازم» اسم علىٰ مسمىٰ!

لكأنّه قدّ من حديد شديد البأس. مخلص في عمله ولا يتهاون أبدًا، يكره التقصير، ويسعىٰ جاهدًا لإنجاز الأمور مهما كانت صغيرة أو كبيرة علىٰ أتمِّ وجه.

هل عمله في الإدارة جعله يصبح جافًا وحادًا هكذا؟

ليس البخل من طبعه، فهو لا ينفك عن جلب الأشياء. بل إنه يعشق التحف واللوحات والأثاث الفاخر، ودائمًا ما يجلب العديد من الهدايا معه في كل سفرة.

«لكنه بخيل في شيء واحد.. الحبّ»!

لا يمنح الحبّ لأيّ كان.. لا يثق بأحد.. يتوجّس دائمًا من الآخرين رغم كرمه وإحسانه، لكنه لم يكن يومًا برحيم أو عاطفي؟ لم تلمحه لمرّة يغشىٰ بالدمع.. محال أن يبكي.

وجهه كقناع ثقيل جدًا مهما حاولت أن تسبر أغواره تعجز،

ولم تعرف حتى الآن رغم مرور خمس سنوات على زواجها منه إن كان يحبّها أم لا.

«سلمى» ما كانت لتعلم إن كان يحبها، أو أنه قد أحبها فيما مضى، ولكن هي فعلت مُذ تعرفت به في معرض الفن التشكيلي لصديقها الفنان «شادي غوانمه[1]».

منذ اقترنت به وهي لم تشعر بصدى خفقان قلبه، لولا تلك المرات التي يقتحم عزلة أنوثتها لحاجة في نفسه، وتعجب أنه يمتلكها كباقي الرجال!

على طاولة واحدة يجلس معها بكامل أناقته وتجهمه، يعجز حتى عن قول صباح الخير ببشاشة، أما هي فدائمة الابتسام على عكسه، لا لسبب إلا لأن الله حباها عينًا تعرف مكامن الجمال مهما كانت صغيرة.

كانت تحدّق به وتعود لتخفض بصرها.. تنقر على الطاولة بملعقتها.

خرج عن صمته المطبق «وكأنّه لم يكن ليتقن اللّغة التي كانت تحاوره بها» وتفاجأت بسماع صوته الذي ربما كان يحتفظ به في صندوق الجدّة!

في حوار طبيعي بين زوجين مثلاً، إن كان ما زال يعتبرها زوجةً له وليست إحدىٰ ضرورات منزله الترِف.

كفّي عن النقر وأخبريني ما الأمر؟ أنا علىٰ عجلة من أمري، لدي اجتماع. تشجعت أخيراً وحدقت به:

أريد أن أفتتح معرضي.. آن الأوان لفعل ذلك.

رفع حاجبه بتعجّب:

وهل تظنين أنَّ خربشاتك فنٌ قد يودُّ الجمهور إضاعة وقته بالنظر إليها؟

احتجّت باستياء.. فلم يكُنٌ مسموحاً لها أن تغضب، فتلك كانت سِمته وحده ولا يحق لها أن تشاركه بها.

هزّت رأسها بحنق:

وكيف تحكم علىٰ شيء لم تره بعينيك، كم مرة أخبرتك

أن تطّلع عليها.. أن تقف أمامها وجهًا لوجه لأن رأيك يهمني!

أسهب في اعتراضه جازمًا:

ولكنّك لست فنّانة، بل هاوية.

تطرِق بدمع تكاد تنتحب: لا يحق لك أن تهينني.. ربما قد نسيت أنني خريجة كلية الفنون الجميلة!

قال لها: عجبًا.. لِمَ تأخذين الأمر على محمل شخصيّ، وتحمّلينه أكثر مما يستحق؟

قالت: ومتى إذن سيكون أمرًا عامًّا، وأنت تهمّشني بكلّ سلطة لديك!

يعود لقوقعته ويسكن.. كمن دخل في غيبوبة وكأنّه توقف عن التنفّس -تُرى بأيّ شيء يفكّر- ودون اكتراث مسح فمه ورمى منديله على الطاولة، هبّ عن الكرسيّ وكأن تحته أشواكاً تنغّص عيشه، حمل حقيبته وغادر دون كلمة..

وقفتْ تحدّق بما تبقى من حضوره الطاغي.. انسلّت دمعة

من عينها، ثمّ همست:

ساعدني أرجوك، مُدّ لي طوق نجاة، أكاد أغرق في بحر لا قرار له، في ديجور ظلمات أحكمت نفسها عليّ، أطلق شراعي.. دعني أحلّق!

لقد مللت الأسوار العالية، مددتُ يدي لك فتجاهلتها! مددتَ لي يدكَ فقبّلتها.. كم أنتَ جاحد، وكم أنا شاكرة! معي ولست لي.

لهيب أنفاسها وزفراتها لامست زجاج النافذة وتحوّلت لضباب أعاق بصرها عن رؤيته، وهو يستدير بسيارته الفارهة.

وكمن يغادر حياتها «حلم» مدّ يده واعتصره بقسوة فأحاله إلى سراب. «سُكّر العالم كله لا يكفي لإزالة طعم العلقم الساكن فمي»!

فنجان قهوة لا يكفي أبدًا.. فهل تنفع سجائر خانقة! كانت العلبة تقبع على الطاولة.. نسيها.. سيؤنبها حتمًا.

مدت يدها وتناولت سيجارة، وبدأت تشعل النار فيها..
تراجعت، هزّت رأسها: ما الفائدة من حرقها في حين لن تنطفئ نارها هي!
أخذتْ تدور في المكان، ساهمة تعيد الأشياء إلى أماكنها، وفجأة أصابتها رجفة قوية، وحرارة أخذت تسري في أناملها شوقًا للفرشاة، تود الرسم بقوة، سارعت إلى مرسمها، ارتدت مريولها وبدأت برسم الخطوط الأولى.
لم تكن تفكِّر بأي شيء، سترسم ولكنها كانت غائبة عن الوعي «ربما»!
ترسم بهمّة واندفاع، تدهن وتخلط الألوان، تحدق باللوحة، تبتعد عنها وتعود ثانية. في لحظة الحزن التي سيطرت عليها، لم تكن لتدري ما قد ينجم عن التحام الفرشاة بالزيت مع أنفاسها اللاهبة، وصدرها المتهدج، ودمعها الذي لثم الخدود وانساب على أطراف علبة الألوان، ليمتزج بها ويتشكل معها، كأنه يعانقها وتتلقفه بمرارة.. كانت تجترّها

ويقتات عليها الوجع الذي لا يعرف حدودًا ولا أكوانًا!
في حين تسلّل صوت فيروز مطبطباً الجرح ويدمله بهمس حزين «أنا عندي حنين وما بعرف لمين ..».
لا تعلم كم مضى من وقت على تلك الحالة، فقد غفلت وركنت إلى مقعدها الهزّاز، وسقطت الفرشاة من يدها، وانساب شعرها كشلال هادر من خيوط الظلام، يعقد هدنة مع بياض الوجه القمري، فبدت كأنها كوكبٌ درّي.. لكأن بياض الثلج خرجت من قصرها لتصبح سلمى الرقيقة.
وقف يحدّق بها! كان يرغب أن يهزها بعنف..
يصرخ بوجهها، بلا اكتراث لم تحضّر له الغداء، لم تكلّف نفسها عناء الرد على الهاتف وكأنّها تعاقبه -كلُّ عصيان يحتاج لردع- اقترب منها بنزق، وكان يهمُّ بإيقاظها ليشبعها بملاحظاته وانتقاداته.
لكنَّ سلمى التي أخذها النوم على أجنحته وحلق بها، بدتْ

وادعة للغاية، وبوجه بلّله الدمع؛ كانت تبكي إذن! للمرة الأولى يلحظ دموع زوجته.. للمرة الأولى يشعر بخفقة تهزّ ضلوعه، سلمى المرأة الجميلة الفاتنة الوديعة بوجهها الذي تلطّخ بالدهان، بغرّتها المائلة وقد التحمت مع أهدابها فتشابكت.. كانت ترسم!

عاد للوراء قليلاً وحدّق بلوحتها التي لم تجفّ بعد، مدّ يده لانتزاع اللوحة يود إتلافها، تسمّر حيث هو.. ما كان ليصدّق ما رأته عيناه! كان حازم يتحول في تلك اللحظة من كائن إلى آخر، كمن يخلع جلده ويتحول! وقد تحوّلت ذراعاه إلى أجنحة، واستيقظ قلبه الذي سكن المقابر منذ زمن بعيد.. ليعود إلى الحياة من جديد.

هل كانت تلك دموع ألم أم مجرد غبار عبر المكان المحكم الإغلاق؟ كان كمن يزحف ليجلس على طرف المقعد، غير مصدّق ما حوته اللوحة. هل يُخلق الإنسان من جديد.. هل يبعث الأموات من قبورهم!

ذات يوم انتزع قلبه وقرّر العيش دونه، فلا أحد يستحق أن يسكن حناياه، وقد فعل! ذات مرّة «كُسر قلبه» فقرّر أن لا مكان لامرأة إلّا بالقدر الذي يريد.

هل حقاً تحبّه سلمىٰ رغم كل ما كان منه بحقها.. رغم جفائه وقسوته.. ومناكفته لها طوال الوقت؟

كيف استطاعت؟ كيف تسلّل إلىٰ قلبها وسكن هناك بتلك القوة. لِم كان طوال الوقت يشكك في قدراتها الفنية؟ بل ويرفض الوقوف أمام لوحاتها! صرّ علىٰ أسنانه بندم وهمس:

تبًا لي! كيف لسلمىٰ أن ترسمني بكل هذه الروعة؟ أهكذا تراني بعين المحب الملتاع! آهٍ يا سلمىٰ كم أحبكِ! ما كان أصعب أن أقولها بوجهك علىٰ مسامعك كي تظلي خاضعة!

أخذته دهشة أعادته للوحتها، وعانقت حروفها وامتلكت فؤاده بشغف. كتبت له: ضحكتك التي أحب مشتاقة أنا لأحتسيها.. حبيبي!

علّقت سلمى لوحاتها التي تقارب الثلاثين لوحة والتي لم يتصوّر أنها رسمتها كلّها.. متى فعلت ذلك؟ متى سنحت لها الفرصة وهو يشغل وقتها كله! زوجته التي كانت ترسم ربما أثناء سفره أنجزت هذا كلّه! وبطريقة بديعة، يكاد يقسم أنها موهوبة أكثر من اللوحات التي علقها على جدران منزله لفنانين آخرين!

هل كان حضورها لتلك المعارض معه تأثير على قدرتها في التجديد؟ تختزن كلّ الروائع، ترصدها بعين محترفة ذواقة.

يطأطئ رأسه بتعجب: كم أخطأت بحقك يا سلمى!

تلك اللوحة التي كتبت فيها بخط عريق، ودمجته بألوان وأشكال زخرفية؛ هل كانت سلمى شاعرة أيضاً؟ ربااه..

«امرأة بقلب نازف هوى على مرآة» قلبي الذي أحبّك يومًا جعَلتهُ يتشظى.. ومع ذلك لم تتشوّه ملامحه، بل حدّق بك بعيون دامعة مفجوعًا.. أكلُّ هذا منك؟ ودون اكتراث جرحته!

كانت سلمى ما تزال غارقة كطفلة لا همّ لها، اقترب منها كانت ساخنة جداً.. خفق قلبه حتى كاد يقفز من بين ضلوعه، سلمى مريضة أخذ يهزّها:

سلمى أفيقي.. سلمى.. لكن ما من مجيب.

ركض إلى الهاتف يطلب طبيبًا يرجوه أن يسرع.

حملها على عجل ووضعها في الفراش، أخذ فوطة وغمسها بماء بارد وقطع من الثلج ومسح جبهتها.. سلمى كانت ترتجف بقوة، وتنتابها حرارة شديدة.. آلمه حالها، وأخذ بيدها بحسرة يفركها بقوة.. سامحيني حبيبتي، ما كنت أعلم كم تتوقين لهذا الأمر؟ ما كنت أعرف أنك خلاّقة مبدعة لهذه الدرجة... ياه كم كنت أنانياً!

تمسح يد الطبيب جبين سلمى، ويستاء من حالها، وعلى عجل تؤخذ للمشفى لعمل الفحوصات اللازمة، وجهها يتغضن من وخزات الألم المتتالية ومن حالتها الغريبة.

لا تقلق.. انفجار بالزائدة الدودية، نحن ذاهبون حالاً

لغرفة العمليات قبل فوات الأوان. يغادر الطبيب بسرعة!
ينهار حازم: أعيدوها لي أرجوكم.
«حازم» كان قد اتخذ قراره، وكان يعمل بجنون.. لم يتوقف عن الاتصال هنا وهناك.. وبعد أن اطمأن، التصق بمقعده وجلس ينتظر سلمى أن تعود من رحلة البنج..
كان قد ألقى برأسه على المقعد، وأمسك بيدها يتأمل تلك اليد الناعمة التي تحمل الفرشاة! وتحضّر أطباقه اللذيذة، ترتيب شؤون حياته؟ حتى عندما أخبرها أنه لا يرغب بالإنجاب وأنه يمقت الأطفال.. كتمت رغبتها وتنازلت عن حقها في الأمومة.
كم ضحّت سلمى وتحملت! ترى لما لم يكن ليقدّر كل هذا؟ كان رجلاً من صوّان لا يزهر وإن هطل عليه وابل من المطر.
كم كان يلزمه من عمر ليدرك أنها حبيبته حقًا ! وأنها سبب وجوده في هذه الحياة!

تململت سلمى وتأوهت:

«حازم» تناديه في عودتها إلى الصحو.. من عالم غامض كانت سلمى تنادي حبيبها.. تزداد دهشته! حازم..!

ويهمس بولهٍ: أنا هنا عزيزتي بقربك.

«ربما لا يستطيع العقل البشري تحمل مثل تلك المفاجأة الصاعقة، والدهشة المقرونة بفرح العيد القادم في غير موعده..

بوهن شديد همست:

أين أنا ؟ أشعر بعطش شديد..

نحن في المشفى، كنتِ مريضة، وبعتب يكمل.. لماذا لم تتصلي بي؟

تنظر إلى السقف وتهتف:

لا أدري.. لا أدري.. لا أذكر! تنظر إليه بوجع: كنت أرسم ولا أعلم ما حلَّ بي.. لم أستطع، كنت أرغب.. حدّقت بالنافذة وحلّقت مع سحابة عابرة.

تشنّج صوته وهو يسأل بوَجَل:

كنت ترغبين بالموت ولذا لم تتصلي بي؟

عدت مبكرًا.. لست أدري السبب؟ ولأنك لم تجيبي على الهاتف.. قمت بإلغاء الاجتماع.. لم أكن أعلم أنكِ.. آه منك يا سلمى.. وتتركينني لمن!

لم يكن المشفى في يوم بذلك الجمال.. أو رائحة التعقيم أشبه برائحة الزهور.. كانت سلمى تتوهج بفرح غامر، وحازم ليس بحازم، هل تبدّل؟ ما الذي حصل؟ لا تعرف لكنها سعيدة جدًا به.. وتشعر أنها تتعافى.. وتود البقاء مريضة لتحظى بالمزيد من حبه واهتمامه.

هل حقاً يحبها! يا هذا الكون ما أجملك! ما أروعك أيتها الحياة شكراً!

كان حازم يُعد لسلمى مفاجأة تكتم عليها..

ذات مساء أخبرها أنهما سيخرجان للعشاء ويمضيان السهرة معًا.

«كانت السيارة تقف أمام الجاليري الذي تقابلا فيه صدفة».
نظرتْ إليه بتساؤل هل سنذهب لمعرض؟ هزّ رأسه بالنفي، سأقابل صديقاً هناك وبعدها نغادر.. أتأتين؟ ردّت بفرح: بالتأكيد.

المكان مزدحم بالأضواء والزوار.. وعلى الباب عُلّقت لوحة كُتب عليها:

معرض الفنانة «سلمى نور الدين».

عنوان المعرض «فسيفساء قلب».

«معرضها هي»

فقدت سلمى قدرتها على السير.. الكلام.. التنفس.. حدّقت به وقد داهمتها دموع لا اسم لها.. وفرح لا حدود له.. وبهجة أشبه بصعقة برق لا تعلم.. الفنانة سلمى تفتتح معرضها الأول رحّبوا بها معنا، وعلا التصفيق الحاد.

قدّم لها حازم باقة ورد أحمر.. وقبّلها مهنئًا.. افتتاح المعرض وذكرى عيد ميلادها!

همست تشكر الضيوف وأضافت: وأشكر زوجي الحبيب على هديته الرائعة.

كانت تتنقّل كفراشة خرجت من شرنقتها للتوّ، تكتشف العالم، وتتيه فرحًا بكل من تحبّهم في الحفل وبمن فيهم الصحافة.

ترافق عشاق الفن.. وعند كل لوحة يلتقطون معها الصور.

كان يتكئ إلى جدار، يشعل سيجارة يحدق بها.. هرعت إليه، مدّت يديها تعانق يديه، ودون تفكير عانقته بحرارة غير عابئة بالحضور.. وهمست: لنعد إلى البيت.

تفاجأ وتمتم في أُذنها: والحفل.. العشاء!

سحبته وسارت مسرعة، لست جائعة، وأنت؟

ضحك: أبدًا .. غمزها وقال لا بأس ببعض التحلية!

للرحيل طقوسٌ أخرى..

ربما كان ذلك من أصعب الأشياء التي كانت تودّ القيام بها!
وما كان ليخطر لها أن تفعل. مدّت يدها تحاول انتزاعه،
تعثّرت في سحبه، حاولت ثانية.. بدا لها وكأنّه استوطن
المكان، وصَعُبَ عليها اجتثاثه، كان ثابتاً كشجرة زيزفون
سكنتها بعض العصافير الغافية.
وعادت ثانية لشدِّه لكنه لم يتزحزح!
مرّ كلمح البصر، خاطر أغرب من الخيال.. كأنّه يعاندها
مثل طفل صغير مشاغب! يرفض الرضوخ لقرارها
المجحف «حسب وجهة نظره»!
إن كان يُسمح له أن يكون صاحب قرار-معترف به-
أخذت سوزان استراحة قصيرة.. وحدّقت به، وبدأت
تصدّق أنه يحاورها.
كلّما حاولت سحبه شعرت به ينبض ويتصبب عرقًا،
ويلتف ويراوغ ويرفض الرحيل.. يلتصق بها ويتوسل
أن تكف عن محاولتها انتزاعه من وطن سكنه وعاش فيه،

حتى زرع جذور ذكرى يصعب طمسها أو ردم رذاذها الممتد عبرَ سنوات مضت.. في ترحال بين جفون العين ونياط القلب ..

وكأنّه يستميلها ليبقى حيث شاء له القدر أن يكون يومًا.

ثمّ لما عليها التخلص منه!

الحاجة ماسة؟ هو لا يفهم كنْه الأمر الذي يتطلب إبعاده إلى منفى يخشاه؟ حيث يكتنفه مجهول وعتمة.

وهو يخاف ذلك حدّ السقوط في غياهب الغربة بعيدًا عنها وكم يشتاقها.

فقط لو أنها تستمع إليه قليلاً.. وتكفّ عن العبث به وبمشاعره، وتخبره أنها كانت تداعبه لا أكثر.

تشاغلت بأشياء أخرى، وأجّلت الأمر إلى حين من الوقت بدا وكأن ساعة رملية تأخذ طريقها للمضي قدماً.. حتى النهاية.

فنجان القهوة كان يرسم صورته المحبّبة ويعكس لمعانه،

عندما مدّت يدها لتناوله.. بدا وكأنه يحاوره: لن يطول الوقت حتى تتخلى عنك أيها المسكين!

وكأنه شهق إذ تحرك على عجل فطرقَ حافّة الفنجان وكسره غضبًا وتأنيبًا.. لتحدُّثِهِ في أمور لا يفقه فيها شيئًا.

ودونما أسفٍ.. أخذ يحدّق بشماتة بالفنجان الذي تشقّق فانسابت القهوة منه وأحرقت أصابعها الجميلة.

هو حدس الأنثى ربما!

لا أحد يعلم..

لكنّ سوزان عزمت أمرها، وقامت من فورها فأخذت بعض الصابون السائل.. وبدأت تغسل يديها وتفركهما بقوة دفعته للسقوط من إصبعها.. تخلى عن عرشه مرغمًا.. وكمن صدر بحقه حكمٌ بالموت شوقًا فارق نبضها، أخذته رجفة برد ترنح وسقط من فوره.. تلقفته بحبٍ وحملته كطائر جريح.. أدنته من وجهها.. لا يصدق كيف استطاعت! قبّلته للمرة الأخيرة.. عانقت الاسم المحفور

بعينيها، وبحنو شديد وضعته على قطيفة حمراء.. وهمست سامحني:

أتخلى عنك لأبدأ من جديد!

ستبقى دائماً في قلبي.

انزوى المحبس الذهبي، وفارقته الحرارة واختفى كصاحبه في عتمة أبدية.

للسعادة دروب تختلف..

لم يكن من السهل عليها أن تعلم به، وينتهي الأمر عند ذلك الحدّ!

كان الماء ينساب من بين أصابعها، وتغرق الأطباق بالصابون، ويمتلئ الحوض بالفقاقيع حتى أوشكت على الانزلاق.

ذلك الصوت المدوّي، هو صوت تكسّر طبق هوى على بقية الأطباق فصار الحوض أشبه بلوحة فسيفسائية.

وقف يحدق بها غير مصدّقٍ: بثينة، هل أنتِ على ما يرام؟

كانت في عالم أبعد مما يتصور، وقد حملتها المفاجأة إلى أقاصي القارة المتجمدة، أو ربّما كانت وصلت إلى الفضاء الخارجي.. من يدري!

بعيون جفّ بريقها من هول الصدمة، كان ذلك الاهتزاز يبعث شيئًا من رجفةٍ في أوصالها أو هكذا تهيأ لها.

كان يصرخ وهي تحدق به ولا تراه، يحركُ شفاهه ولكنها عاجزةٌ عن سماعه ما بكِ؟

حبيبتي ما علّتك؟

ترفع يدها لترفع غرّة مهاجرة تأبى العودة.. يصرخ مشدوهاً:

- بث .... ينة!

يسارع لجلب منديل لوقف النزف الذي لوَّن الحوض، فاختلط الدم بالصابون. ضم الجرح وهزّها بعنف.

الوقت لا يُحسب أبدًا، من ذلك الزمن الذي توقف عند عبارة واحدة، هل كان عليها أن ترد على تلك المخابرة؟ لو إنها انتظرت حتى اليوم التالي!

ترى لِمَ أصرّت على تلقي الخبر بالهاتف! هل كان يساورها شك منذ البداية.. هل كانت تعلم في قرارة نفسها؟

هل آخر بصيص من أمل الآن.. هو من انزلق وانساب كرمل الصحارى وهوى.. فذوى؟ هل ما زالت واقفة؟ أما زال لديها القدرة على الوقوف؟ عجباً كيف لها ذلك وهي تشعر بأنها تتأرجح؟ ودون شعور كانت تلف ذراعيها

حول عنقه، وتلقي برأسها على كتفه تدفنه هناك حيث الوطن الذي تحب.

وتشهق آخر فلول الانتظار المرتقب على أمل! هل كان ذلك دمعاً أم بركاناً تفجر؟ كلُّ الأماني رحلت ولا زالت تهتز.. وهو يهبط بها الدرجات مسرعًا، حاملاً إياها نحو أقرب مركز للطوارئ.

عندما أمسك الطبيب بيدها النازفة واكتشف أنها مزقت بعض الأوتار.

ما كانت تعي مدى الألم الذي كان ينبض بحرارة، والساخن الذي ما زال يلون المنديل، ويتسرّب نحو قميصه..

هي لم تعد كما كانت، هكذا بدا الأمر.. هي ليست من أهل الأرض، فقد رحلت.. هكذا كانت تشعر الإبرة التي أخذت تخيط جُرح اللحم المنشق، ولكن كيف للإبرة أن تقوم بردم أكبر جرح استقر مقاماً في قلبها وروحها!

كان هشام يمسك بيدها ويضمها بلهفة، ترى هل سيظل

على حبّه ولهفته لو علم؟ هل ستظل في نظره أجمل امرأة وأشهى طفلة كما كان يحلو له أن يقول حين مداعبتها!

هل تخبره الآن أم تنتظر؟ هل تكتم الأمر.. ولكن حتى متى؟

وهل يكفي العمر كله ليغفر لها لو ظلّت على صمتها مدّعية الجهل!

ليتها لم تعرف، كان الأمل هو من يبعث في نفسها الشوق والترقب، أن ذلك قد يحدث يومًا. ولكن الآن هي تعلم جيدًا أن لا أمل، لا علاج، النتيجة حتمية وقاطعه.. هي امرأة عاقر بكل ما في الكلمة من معنى وصدى.

تمسح وجهه وتخبره كم هي آسفة..

يتعجب.. ولِمَ تعتذرين حبيبتي لا شكَّ أن هذا من وقع الصدمة!

تجهش ببكاء حاد، وتقول:

آسفة لم أكن أقصد التقصير في حقك وأرفض تضحيتك.

يتعجب من رفضها أن يمنحها بعض دمه لتعوّض ما فقدته قبل قليل. ربما كان النزيف ما جعلها تتداعى».

وهل تعتبرين هذه تضحية حبيبتي؟ ألا تودّين أن تختلط دماؤنا!

تنكّس رأسها..

وهل هناك أغلى من دمائك لتسري في عروقي، أشعر بدفء لذيذ يدغدغني للفكرة ويُحيي عظامي.. ليتني كنت أستطيع.

فجأة رنّ الهاتف مجددًا.. يتلقى هشام المكالمة:

نعم.. أهلاً.. هذا هاتفها ولكنها متوعّكة.. أنا زوجها، أجل سأعلمها بذلك شكرًا.

ترنو إليه بوجل، وتحاول تفسير ما ظهر على وجهه من استغراب، ترى هل علم بالخبر! تهمس بوجع:

ما الأمر حبيبي؟ يحدق ببراءة ويقول:

يودون إعلامك أن المختبر أرسل لكِ النتيجة الخاطئة،

نتيجة تشابه في الأسماء بينك وبين مريضة أخرى، وهم يعتذرون بشدة! وعليك المرور لاستلام النتائج.

ولكن ما معنى هذا كلّه عزيزتي؟

عن أي فحص يتحدثون؟

هل تشتكين من شيء ما، ولما لم تخبريني؟

كانت بثينة ترتفع من حفرة هوت بها قبل قليل إلى أعالي السماء..

كانت تتوهج.. وتكاد تطير في ذهول ونشوة..

صرخت: حبيبي لا مانع من منحي دمك!

قطب حاجبيه وهمس:

بثينة لاشك أنكِ لست على ما يرام.. أيها الطبيب..!

كانت تمنعه من الإكمال بقبلة حارّة.. راقت له.

الطبيب الذي سارع لتلبية النداء.. تعجب مما يجري.. ومما يرى..

ولكنّه انسحب واكتفى بالابتسام.

لا تستبق الأمور ..

بعد صمت مطبق، أشبه بصمت العصافير التي أخذتها غفوة.. طوى جريدته.. وتحّرك من مكانه قائلاً: وللحديث بقية.

قامت على الفور وهمست: لكننا لم نبدأ بعد!

تأمّلها قائلاً: ألم تكتفي بنداء قلبينا؟

احتجّتْ وهي تتعلق بذراعه:

ولكن هناك أشياء كثيرة تعتمل في نفسي وأود اطلاعك عليها.

ابتسم بثقة وأخذ يدها بيده: ولكني أعرف ما ستقولين.

هزت رأسها بدهشة وقلبت شفتها الكرزية: حقًا!

كان واثقًا جدًا فهمس بغرور: أجل.

وضعت يدها على خاصرتها وحدّقت به بفضول: إذن

أخبرني!

قال مداعباً ليغيظها: ولِمَ لا تفعلين أنتِ؟

تفاجأتْ.. ولكنّك كنت تقول!

ضحك.. صحيح! ولكنّي أحبّ سماعها منك.

تنهّدت بأسىً: حسنٌ، هل لك أن تطلقني!

وقع من فوره مذهولاً، الطلاق آخر ما كان يتوقع أن تتفوه به يومًا!

شهق مفزوعًا: ماذا تقولين؟

انفجرت ضاحكة.. همست بسخرية:

هوّن عليك حبيبي كنت أمزح.. فقط أود الذهاب للسوق هل ترافقني؟

مدّ يده وصفعها بقوة جعلتها تترنح..

وصرّ على أسنانه بشدة:

إياكِ أن تعودي لمثل هذا المزاح ثانية..

وضمّها بحنق معتذرًا.

استنزاف..

قال يحاورها:

أنا لا أمانع لو قمتِ بأخذ رشفة من الكثير الذي أملكه، ولكن أن يكون جزائي الألم الممض الذي تُخلّفينه بعد ارتوائك.

ذلك أمر مرفوض حتماً ! فهلا غادرتِ بهدوء مسامات جلدي وكففتِ عن إزعاجي وعن الطنين..

أيتها الناموسة المقيتة، ابحثي عن جسد آخر!

لكنّها لم تفعل..

فما كان منه إلا أن منحها المزيد من دمائه، وبخبث راقبها تموت جشعًا.

72

على مُفترق ..

على منضدة تزاحمَ عليها الأسى، وسكب نفسه في كؤوس معتّقة بالألم والدهشة.. كان ينتظر جوابها.
ما كانت لتعرف أي شيء تقوله.. فضّلت البقاء صامتة.
وتأهّبت للمغادرة كمن كان يرجو لذّةً على شاطئ الأحلام، وركب موجة بحر عنْوة، بلّلته ونزعته على حين غرّة.
تردّد صدى صوته: أريدك وحدك، أرغب بك لي وحدي، بكلِّ ما تملكين من وقت وحبّ وحنان.
لا أستطيع إيواء ابنتك.
عند هذا المفترق قررتْ أن تغادر دون كلمة وداع.
وقف يحدق بها غير مصدق أنها ترحل رافضة عرضه الرائع.
من وجهة نظره قفَلتْ عائدة..
كانت تحثّ الخطى سعيدة.

منحوتة..

مُذ وقع بصره عليها قرر أن يُعيدَ تشكيلها.. كانت جميلة لدرجة طاغية، وما كان يرىٰ إلا ما ستؤول إليه من كمال وروعة.

فقط لو مرّر عليها أصابعه..

وأضاف إليها بعض لمساته..

وداعبها هنا وهناك..

لخرجت إلىٰ العالم بوجه..

لا يضاهيه جمال..

عقاب..

كطفلة متسلّلة مدّت يدها على حين غفلة من الجميع، وقرّرت أن ترتديه وأن تتباهى به..
تعلم جيداً أنه لا يليق بها، وليس من حقها..
ولكنّها لم تستطع إلا أن تجرّبه توّاقة لذلك الشعور..
هي تطوف به وهو يدندن..
هكذا كانت..
تذوب به، لونه الأحمر الزاهي ملك جوارحها، لم تكن معتادة عليه.. تعثرت وكسرت كاحلها!

عشق موؤود ..

من كان يتخيّل أن تلك الليلة ستحمل في جعبتها النهاية الأشد غرابة.. من كان يظنّ أنّ تلك المكالمة ستكون الأخيرة! وأنّ الهاتف الصغير سيشتاق لصاحبته، وهي تهمس بعد منتصف الليل عبارات الحب البريء الذي لم يتجاوز -ولو لمرّة- شبكات الاتصال، ليكون هاتفها سببًا في رحيلها عن الوجود.

لحظة ودّعها وهو يتناثر كأشلاء في المكان؛ لتتبعه هي وتتكوم إلى جواره.

تمدّ يدها هامسة بدهشة.. «أخي»: لماذا قتلتني؟

يتفصّد من بين الضلوع خنجر -لا همّ له- إلا استلال روحها..

ينغلق الباب عن ظلٍّ أثنى على نفسه مهمةَ غسل العار!

لعوب..

لم يعد صوتها يسبق زقزقة عصافير الصباح..
لم تعد ضحكتها تهز شجرة التفاح. لم تعد حبيبة أبدًا كيف تسلل عطرها واقتحم المكان.. وما من أحد يقف أمامه سوى رجل!

بؤس ..

لا تسلبيني ثوبي الوحيد..
همست المرأة متوسلة «ريح الشمال»..
عندما داعبتْ حبلَ الغسيلِ بقوة!

ادمان ..

قام بصف سيارته على عجل ؛ لم يكترث كثيراً أنّه يعيق حركة الطريق.

ركض سريعا إلى البقالة، عاد وعلى وجهه لمسة ارتياح، فقد حصل على زاده لتلك الليلة.. ثلاث علب سجائر!

صباحات مختلفة ..

كان يشعر بالملل فقرر افتعال شجار، ليكسر رتابة الروتين. شعر بالتجدّد.. تثاءب.. تمطى وأخذ غفوة ونام. و هي ظلّت تحدّق بفراغ المقعد المتجعد تعض شفاه الغيظ.

هاجس..

تسلّلت كقطة وانسلّت كمن يسير على سلم موسيقي، هادئة كنسمة عبرت.

حرّكت الستارة وانزوت.. بقلب خافق وأنفاس متهدجة.

أصابعها الجميلة كانت تتحسّس بحثًا عن ثنايا خفية، تضم معطفه وكأنها تعتصره.. شيء يدفعها لقطع الشك باليقين، لكن ما من دليل! أتراه يفوقها ذكاء؟

هاتفه، معطفه، حافظة نقوده، حتى رصيده.

لا شيء يبعث على الريبة!

كان يتأملها بعينين ملؤهما الأسى والدهشة، وكلّ هذا الحب.

من قد يصدق أنها تبحث عن رائحة أنثى..؟

تعيش في مخيلتها هي فقط..!

سواد التوق ..

أشوق أتى بها أم وخز ضمير؟!

عضّت على شفتها وهلعت عندما رفعت يدها المتعرقة كورقة توت تهتز.

أتطرقُ الباب أم تعود أدراجها راحلة؟

هل كانت تجازف بمجيئها دون دعوة! أم أنّه لا فرق بين الأحبة؟

ربما كان الضجيج الصادر من قلبها أقوى وأشد من قدرتها على الاحتمال؟

هل كانت تملك حلاً إلا الرّحيل أو الهرب؟!

التفتت عدّة مرّات على صوتًا ما يندفع مناديًا إياها، يتخذ القرار عنها، أن توقفي عودي. تعلّقت أنظارها بالنافذة علّ الستارة تنزاح.. هل ثمة أحد؟

عند مفترق الطريق، توقفت لوهلة ربما طال أمدها، من يدري هل كانت شجرة الزيزفون تلك هناك منذ الأزل .. أم أنها هي تحوّلت فجأة إلى شجرة!



منشورة في مجلّة أفكار/ العدد ٢٩٢ للعام ٢٠١٣م

(١)

تبًا للوحدة

كان يوّد إثبات أمر واحد.. وهو يبحث عن حرية يشتاق إليها! في البداية ظننته مجنونًا، ولكنّه كان يتوق لبعض الهواء بعيدًا عن كلمة «لا» التي أثقلت صدره.. وهكذا قرّر أن يقف على الحافّة.. ويختبر معنى أن يكون نورسًا! لكنَّ النوارس لم تكن تعود محمّلة ومثقلة بالأبيض.

(٢)

تبًا للباب

حتى وهو يصرخ بوجهها ابتعدي ! وهو يشتمها، وهي غاضبة منه .. وقفت بينه وبين الباب رافضة إعطاءه المفتاح. تخشى عليه من وحشة الطريق .. من غضبه المحتدم .. من مزاجه المتفجر.. كانت تحبّه، وتخشى عليه أن يخرج ولا يعرف للعودة طريقًا.

(٣)
تبًا للغربة

لماذا يراودني شعور أنك تخلع جذورك وترحل؟ وكأنّك تقتلع الوطن من أعماق روحك وتتوق للرحيل؟ بتَّ تحدق بالأفق البعيد، وكأنّك ترجو الشمس أن تغرب عن ليلتك الأخيرة حتى يطلّ الصباح معلناً عن موعد رحلتك القادمة، تذكرة سفر ذهاب بلا إياب.

وإذا سألتك لِمَ ؟ تخبرني أن الوطن أطبق كفيه عليك وضاقت نفسك ويدك ! اغترابك لا لشيء، إلا لأنك تريد إيوائي بمكان يليق بي؟ عجبًا.. وهل هناك مكان أحفل به سوى قلبك وبين يديك؟

(٤)
تبًا للروتين

قرّرت اليوم أن أعلن العصيان عليك، وعلى كلِّ الأشياء المحيطة بك.. أن أعلنها ثورة على روتينك، قراراتك، دروبك التي ارتضيت لي السير فيها، ووضع كل إشارات المرور: من توقفٍ، وخطوطِ مشاة، وألوانٍ ثابتة، لا تعدو عن كونها الأحمر والبرتقالي.

كيف اندثر اللون الأخضر، ولا زلت أراوح حيث أنا..؟

سأصرخ حاملة لافتات العصيان تعلن نيران الغضب، سأخطّها بألوان قوس قزح.. كفى.

أريد أن أعيش..

أفسِحوا لي الطريق!

(٥)
تبًا للفقر

وعادت تجرُّ أذيالَ خيبة خطيئة خشية إملاق! تحمل في يدها عدّةَ أكياس لتطفئ جوع صغارها.. لتضيء قنديل ليلهم الطويل المعتم.. بزيت متعة مستلبة على غير رغبة.

(٦)
تبًا للوعيد

ما أسهلها من كلمة يستخدمها كي ينفث حمم غضبه، هل يجدها سهلة حقًا؟ كيف هانت ونطقها بتلك السلاسة؟ تنطلق كرصاصة مدوية! ولكن ما تفعله بالقلب والعقل شيء غريب.. «طالق» إذا خالَفَتْ أوامره، وهذا أمر نهائي. لكن ما لا يعلمه.. أنها ربما تتوق لهذا الطلاق!


ومَضات...

على المدى البعيد

هو: لم يكن إلا كريماً جدًا.
هي: كم بدت ناكرة للجميل.
على مرمى البصر..
هو: لم يكن حبّه إلا من باب الغيرة والحصار.
هي: لم تكن إلا بائسة ترغب بالفرار!

امرأة جحيم

عندما أخبرها بكل هدوء، «أنتِ طالق».
قررتْ أن تنتزع كل رجل من حضن زوجته..
وأن تحصل على أول رجل تقابله في الطريق !

رجل جليد

ولأنّ زوجته قبيحة..
قرّر أن ينتقم من كل امرأة جميلة يلتقيها!

رصد دون قصد

فيما بعد.. ليس الآن.. أخذتك مني.. سأتوقف.. لن أفعل.. رحيل! فيما بعد ستشرح لي.
ليس الآن .. ثمة عوائق.
صروف الدهر أخذتك مني.
في محطة الانتظار الطويل سأتوقف. لا شيء تغير سوى هروب العمر وانفلاته.
ولكنّي لن أفعل. رحيل الحافلة.. لا يعني أن المحطة أُغلقت.

حصار

كانت تتهادىٰ علىٰ أرصفة روحه
تزرع ورودها.. فاكتظّ الرصيف وضاقت به السبل..!

مُعتّق

هي: تُلْهِمهُ بشدّة..
هو: يلْتَهِمُها بشدّة!

عشق

قالت له: لست بنص.. أنت مجرد لِّص.
قال لها: وأنت القلم الذي سينير دروب العتم.

حور عين

ليس عليه أن يقلق أبدًا
عندما قرّر الزواج.. عاد إلى أمه وسألها أن تبحث له عن زوجة مثالية.
قد اكتفى من اللعب هنا وهناك!

ضياع

ما زال الطريق طويلاً..
ما بين مدٍّ وجزر،
تعثرت القواقع
وضلّت طريقها..
بالرغم من..
ضوء القمر.

كيمياء

كيف لها أن تعانق رجلاً من ثلج ..
وهي امرأة من كستناءٍ.. وجمر؟

احتكار

وكلّما سافر..
كان ينسى، ويأخذ معه.. قلبها.

أقدار

تأخّر كثيرًا
أنهكها الانتظار.. رحلت
ويتساقط من جيبها قطع حلوى
كانت أعدّتها له..
التهمتها الحمائم

فكان نواحها هديلاً
أبطأ سيره..
لتتلوّىٰ بوجع الانتظار..
فكان الصمت والدهشة
لقدومه عنوانًا..
كانت الصقور تحلّق
معلنة البهجة
بوليمة وحلوىٰ..

عندما تعثّر الياسمين...

لم يكن الحظّ مشروطًا في يوم بالجمال، أو حتى الذكاء. لطالما تخلى عن أحدهما. فقد يكون الجمال مقترنًا بالفقر والكدر. وقد يقف الذكاء وحيدًا دون مال، فتتوقف الأحلام عن تسلق أدراج المجد، ويظلّ الذكاء حبيس جمجمة مثقلة بالهمّ والعوز، والبحث عن لقمة عيش. وبذلك يخسر المجتمع من كان سيرسم له ربما حلولاً لحالات مستعصية! وقد يجتمع الجمال والمال والمكانة الرفيعة.. فكم قد يبدو الأمر رائعًا في الظاهر ولكن!

الصدفة تلعب دورها وقد تتغير الأقدار.

هي نقيّة كياسمينة، تلفح وجه الصبح بنداها، تبعث الفرح فيمن حولها، إذا ما مرّت بملامح طفولية عذبة ورقة متناهية.

«سلسبيل» امرأة فاتنة بكل معنى الكلمة، تتهادى في سيرها.

ومن لا يحب سلسبيل المهندسة الظريفة ! كانت متمهّلة جدًا

في اتخاذ قرار الارتباط، لكنّه كان يتأمّلها ويرسم في مخيّلته كيف يمكنه أن يلتهم هذه الكعكة اللذيذة بلقمة واحدة. ولذا سارع لطلب يدها.. وتجاهل اللائحة الطويلة التي اقترحتها والدته كي يختار عروسًا يصحبها معه إلى أمريكا، بعد انتهائه من دراسة الطب. وللقدر شؤون أخرى وما لم يكن بالحسبان حدث.

«عصام»، الذي جلس بوقار شديد، بوجهه الوادع ومحيّاه الجميل ولباقته، نال استحسان الجميع وتمت الموافقة. فترة الخطوبة كانت قصيرة وتم الزواج سريعًا.

أي شيء قد تعرفه سلسبيل عن الرجال وعالمهم، ولم يسبق أن كان لها علاقة من قبل؟ لم يطرق الحب بابها أبدًا.. حتى عندما كانت على مقاعد الدراسة، لم تكن لتكترث بذلك التقارب الذي يحدث بين أصدقائها في الجامعة. وما كانت لتشعر بتلك الكيمياء مع أي منهم. وكم كانت دهشتها كبيرة عندما لمحت إحدى صديقاتها تعانق حبيبها تحت

شجرة وارفة الظل!

امتعضت يومها، أيهون الحب لدرجة أن يصبح أشبه بجريمة سرقة وما شابه. ياللهول! حتى تلك الأوقات التي كان يتعمّد فيها العشّاق التلامس وإن بدا الأمر مصادفة! كانت الذبذبات التي تنبعث في المكان تدفع الجميع للتيقن من عدم وجود براءة في تلك الأجواء!

كانت تحتفظ بكلِّ ما لديها من مفاتن ومشاعر جياشة لشريك حياتها المنتظر، وقد حان الوقت لتتويج ذلك الحلم الوردي، فكم بدت ساحرة بثوبها الأبيض، ناصعة كحورية عرفت الطريق من البحر إلى الأرض، تتهادى برشاقة تأخذ الألباب وتَسحر القلوب والعيون، كفراشة أطلت لامعة وهّاجة أذهلت الحضور بنورها، فأضاءت المكان كنجمة هبطت فجأة من أعالي السماء على أطياف نيزك وأثارت جلبة في المكان!

انطلقت الزغاريد والتصفيرات والتصفيق انبهارًا وإعجابًا.

كانت ترتعش من الخجل والفرح والرهبة.. مشاعر مختلطة تراكمت حتى كادت تتعثّر بثوبها الضخم.. يراقصها ويحتويها؛ فتتوهج أكثر.

ويغادر آخر الأقارب قاعة الحفل، فتقف أمّها وتهمس:

- أمانة في عنقك احرصْ عليها. تبتسم وتخلّف بعدها صمتًا مطبقًا.

يغلق الباب .. تقف حائرة وهي تحدّق بالمرآة.. هذه الطرحة جميلة جدًا، معقّدة جدًا، ولكنها مضطرة لإزالتها. تمد يدها في محاولة لسحب الدبابيس والتاج المرصّع، تتوجع بصمت لكنّه يتبرع لمساعدتها.

تحني رأسها، لا تجرؤ على النظر إليه عبر المرآة، تتورد خجلاً وتحبس أنفاسها حتى تكاد تشعر بالاختناق فتزفر ويتهدّج صدرها بقوة. إنه يمارس كلَّ أنواع الضغط النفسي معها، ويعلم جيدًا تلك الانبعاثات الخجولة في محيّاها وحركاتها.

تكاد تهوي وهي تغوص في مقعدها.

يهمس بصوت مبحوح قرب أذنها: أنتِ جميلة للغاية.
تقشعرّ لهمسهِ وتتجمّد، إذ بدا يتحسّس بطريقة غريبة عنقها، ويتذوّق شحمة أذنها ويُكمل: لذيذة المذاق أيضًا.
كانت تمد يدها لدفعه بعيدًا.. تخشى من عواقب الاستمرار، فهو يقتحم عزلتها، ويستبيح أسوار قلعتها الحصينة.. ولكنّها تتوقف مذهولة؛ هو زوجها ويحقّ له، وكلُّ هذا أمر طبيعي.
تنتفض عندما بدأ يتخلص من فستان زفافها.. ويلقيه بعيدًا. تتوقف فزعة بملابسها الداخلية البيضاء المخرّمة، وتحاول ستر عُريها ثمَّ تهمس بصوت متقطع: توقف.. لا تفعل!
يحدّق بدهشة مفتونًا، ومن ثمَّ ينفجر ضاحكًا لشدة خجلها. تشعر بالعار وتركض لتلفَّ نفسها بأي شيء، أي شيء.. وإن كان غطاء السرير، المهم أن تختفي داخله لتستعيد قواها الخائرة.

تهمس بغيظ: لماذا تضحك؟ يتهالك على مقعده ويُكمل: لأنكِ طفلة في جسد امرأة، كم هذا ممتع!

وتابع: سلسبيل، توقفي عن العبث، تعلمين هذه ليلتنا الأولى .. فلا تهدريها.

ودعينا نستمتع!

لوهلة شعرت برغبة كبيرة في صفعه، كان يبدو كقطٍ كسول يتلذذ بفريسته.. عصفورة تتأوّه ولا مفرَّ من مخالبه، وهو يخدشها بين الحين والآخر.

كانت تقف بالزاوية تأكلها الحيرة مما تشعر.. للمرّة الأولى تنتابها هذه المشاعر التي لا تفهمها أبدًا.. فهي مأخوذة به تارة.. غارقة في موجاته التي حملتها على أشرعة من اللهفة والشوق تارة أخرى، لتعود ثانية متوجسة، فهل ما يحدث حلم أم حقيقة؟!

يقترب ثانية يأخذ بيدها ويبتسم: هيا نأكل، أشعر بالجوع ألستِ جائعة؟ تهز رأسها موافقة.

يبدأ بسكب الطعام، يسألها: أي شيء تحبين؟

بهدوء تجيب: أي شيء.

صحن مليء باللذائذ، ما زالت تحت تأثير الدهشة، يمرّر إليها لقمة، تفتح فمها ولكنه يحشر إصبعه في فمها فتُطبق عليه. يهزّ رأسه برضى.

ويهمس: كأس عصير.. ما رأيك؟

توافق ثانية. يبدأ بسكب شراب ذهبي مع قطع من الثلج. لم تدقق كثيرًا في الأمر، فهي تحاول التلهي عن متابعته وهو يتحرك مثيرًا توترها، يرسل شرارات غريبة تهز مساماتها فتنتفض كلما لامسها عمدًا.

اشربي حبيبتي.. ستشعرين بالراحة بعد قليل، لا شكّ أنّك عطشى! ابتسامته العريضة سلبتها كلَّ مقاومة.. اشربيه مرة واحدة هكذا، وتجرّع الكأس أمامها ففعلت مثله. شعرت بلسعة حارقة في جوفها، طعمه لاهب وكادت تختنق، انتابتها سعلة قوية. لكنه مال نحوها وربّت على ظهرها

ضاحكاً: هل أعجبكِ؟

- لا لم أحبّه أبدًا.. ما هذا الشراب؟ لم أتذوّقه من قبل!

شمبانيا عزيزتي ليصبح مزاجك رائعًا. تشنّجت: ولكن كيف فعلت ذلك يا عصام؟!

بلا اكتراث هزّ كتفيه: ما بك يا حوريتي ما المانع؟

- حرام !!!

قهقه: حراام! ولكنّ اللّذة لا تكون إلا في المحرّمات يا حلوتي.. هيا كفاكِ، ودعينا نكمل عشاءنا إلا إذا كنت راغبة في الذهاب للنوم!

تنكمش: لا لا دعنا نُنهِ العشاء فما زلت جائعة -كانت تكذب- ولكنّها تحاول إرجاء تلك اللحظة حتى النهاية. ما زالت خائفة. الكأس الذي حملته بوجل.. ما زال يمتلئ بعد كل رشفة تتجرعها. وهو يراقبها بتحدٍ أن تنهي ما بداخله.. فجأة بدا الجناح الملكي مشرقًا أكثر.. والمكان دافئًا جدًا. استكانت إلى وسادة، فانزاحت عباءتها الحريرية،

وبدأت تشعر بخدر يتسلّل في عروقها النابضة. تبدأ اللعب بكأسها، ويبتسم عندما قفز إلى جوارها، وبدأ يسرق بعض لفائف شعرها ويلويها ويشدها إليه.. لم تمانع، بل مالت إليه، وأراحت رأسها على كتفه الممتدة على المقعد الوثير..

هل تذكر ما حدث؟ هل حدث شيء؟ كانت تهزّ رأسها.. تحاول نفض ذلك الصداع الرهيب الذي ينبض من صدغيها حتى نهاية جمجمتها ورقبتها المتشنّجة، وذلك الثقل الجاثم على صدرها، تتحرك بصعوبة، ترمش وتدفع الذراع القوية التي تطوقها. تنتزع نفسها وتتابع الانفلات. ما أصعب الوقوف بثبات! كلُّ مسامة فيها تؤلمها، جسدها واهن. الحمام يبدو بعيدًا كبعد السماء عن الأرض. يهمهم وهو يتقلّب، تحدّق به بدهشة إذ كان مستغرقًا بالنوم، اختفت كل ملامحه العابثة، لتحلّ براءة ووداعة ألِفتها.

تتابع نحو الحمام، هناك امرأة أخرى تقف أمامها من تكون يا ترى! كيف سمحوا لها بالدخول! ضباب الصورة لا

يمنحها كافة التفاصيل؛ شعر غجري، وثوب عاف الكتف وتهدّل، وَجَنات محمرّة، وشفاه عرفت أسرارًا وخبايا. وجهٌ فقد عذريته، عيون متوهجة بفعل السهر أو الشراب، أو الحبّ أو أشياء أخرى مخجلة.. لا أحد يعلم. استعانت بالمغسلة لتتعرف أكثر على من خلعت ثوب الطفولة، وأصبحت المرأة الفراشة. المرأة التي خرجت من شرنقتها، وحلّقت وقالت له: هيتَ لك قدّ قميصي من دبر، رغم أنه راودها عن نفسها، ولكنها سمحت له أن يقده من قُبُل..

عضّت على شفتيها وشعرت بخجل شديد، وذابت حيث هي. تعتمل في نفسها معارك لم ينتصر فيها أحد، ولم يخسر فيها أحد.

تحت مياه ساخنة تغسل آثار رحلة الاكتشاف، تتفاجأ بكدمات غريبة، تتعثر وهي خارجة، وتعود للاختباء في روب الحمام، تمشي الهوينا كمن يسير على حرير تخشى أن يتمزق.. ترتدي ملابسها وتذهب لتعدّ فنجاناً من القهوة

علّها تتخلّص من صداعها.. هل من مسكّن في هذا المكان؟
صوت الماء وهو يغلي يخفي خطوات فهد يتسلل، يعانقها من الخلف: صباحكِ يا كعكتي.. تقفز هلعًا ويتلقفها مجددًا:

«وبعدين معك.. سلسبيل ليش خايفة؟!»

هل لي بفنجان قهوة أم..؟

تجيب على الفور: طبعًا.. تفرّ هاربة.

يغلق الطريق، باستياء.. تهتف: أفسح لي لو سمحت.

«لو سمحت» يقلّدها بصوت أنثوي..

كفى عصام..!

وبلطف يفسح الطريق: تفضلي يا حورية.

لم تكوني هكذا أمس كنتِ فرسًا جموحًا.. قطة متوحشة، كنتِ رائعة!

تتنهّد، لم تنتهِ ليلة أمس إذن! تتلهى بالفناجين وتلوي شفتها:

ألا تتوقف عن المزاح؟

يشهق: مزاح! أتسمّين هذا مزاحًا؟ يا إلهي ما أصعب ترويضك! تعالي تعالي صباحٌ تنفس، وأغدق على الكون نسيمًا، وقبّل عيون أزرار الورد بنوره، فتفتحت بخجل يشبه خجلها.. ولكنَّها شُغفت بقبلاته، وتركته يداعب بتلاتها ويغرقها بدفئه.

يحاصرها بنظراته النهمة.. ويبدأ الغزل من جديد.. ويهمس:

هل أنتِ دائمًا هكذا في الصباح؟!

ترفع حاجبيها متسائِلة: ماذا تعني؟

يرفع إحدى ذراعيه ويسندها إلى خده مقتربًا منها:

أقصد دائمًا مشرقة كالشمس، يانعة كالزهرة، ورائحتك شهية كقرص عسل؟

وَجَمتْ من سحرِ كلماته، وتورّدتْ حتى غدتْ كورد الجوري.

بقي يغازلها فازدادت فتنة.. لم تعد قادرة على تحمل المزيد..
أنقذها جرس الهاتف. الحمد لله، تبتعد بسرعة لتتخلص
من عيون ترسل المزيد من الوعود بابتسامة خبيثة يحررها.
صباح الخير، أهلاً ماما. أنا بخير.. لا أعلم سأخبره.
تنظر إليه: هل تقبل الذهاب للعشاء عند ماما؟
يقطب حاجبيه رافضًا: لم أنتهِ منك بعد.. لا أريد أن
يشاركني أحد بك، يبتسم بخبث بغيض.
الوقت المتبقّي قبل السفر لا يكفي أبداً للقيام بكلِّ تلك
الطقوس التي تسبق الاستعداد لمرحلة انتقالية كهذه.
لائحة طويلة من الأمور الواجب إنجازها.. الاستقالة من
العمل، حفل الوداع، السفارة، تصديق الأوراق والوثائق
اللازمة.. كلُّ هذا، وأهمُّ شيء في هذا التسارع كانت فكرة
الاغتراب عن كل ما هو مألوف، والأهل الصديقات.. كل
شيء سيتغير.
سلسبيل بدت مختلفة بشكل واضح. نضجت فجأة كثمرة

وآتت أُكلها.. ازدادت لمعانًا، ولكنها لم تتخلَّ أبدًا عن خجلها، بالرغم من إنها لم تعد تمانع متابعة طقوس زوجها الغريبة، عندما تُغلّق الأبواب ويبدأ مسرحياته التي يُشركها فيها. وبات الشراب الذهبي أحد تلك الطقوس. رغم اعتراضها المستمر، وإصراره وفوزه في كل مرة.

مثلاً كان عليها أن تُمثّل اليوم دور زليخة، وأن تراوده عن نفسه، وتقوم بقدّ قميصه من دُبر.. بالأمس كانت «دليلة الخائنة»، ومن قبل كانت «كيلوبترا» التي ماتت بالسم.. لكنّها كانت تعشق دور جولييت.

أما هو فقد كان يفضّل دائمًا ليالي شهريار الألف.. وكان يطيب له أن تقوم بسرد القصص والحكايات كشهرزاد، اتخذت متكأ في خدرها، وقد ضمّت رأسه إلى حضنها تداعب خصلات شعره، وتخشى الصباح إذا ما لاح أن تكون النهاية على يد السفاح.. ومن هناك تتنقل في سطور التاريخ، لترتدي عباءات لأخريات خلدهنَّ التاريخ مثل

هيلين طروادة، أو لبنى العاشقة.

وللأساطير أيضًا نصيب في علاقتهما الغريبة؛ فقد كانت تشعر في كل مرة أنها دائمة التحفز، لا تعرف الملل، شديدة الانبهار، ما أغرب ما قد تعيشه أنثى في عالم رجل يتقن فن الحب بجدارة! لا أحد يعلم كم كانت سلسبيل محظوظة.. كم رافقتها نظرات الحسد والغيرة وهي تتأبّط ذراعه وتغادر عالمها إلى الأبد.. وتندمج معه وتذوب به.

لكنّ الطقوس بدأت تأخذ مسارات أخرى، فبدت مختلطة وعلى عجلة من أمرها لتناول الشراب الذهبي. كأنّها بحاجة ماسة له رغم أن موعدها معه كان دائمًا في المساء. ولكنّها بدأت تفكر به، تشتاق إليه، وتتسلل إلى نفسها رغبة احتسائه في وقت مبكر. وكان زوجها فرحًا بتوهجها بعد قرع السائل ويتمادى أكثر.. وما بين الغفلة والصحو، شيء ما قرع جرس الإنذار حين كانت غارقة حتى أُذنيها بموسيقاه الهادئة، ودفء ذراعيه، وكأس الشراب.. كأن

الدنيا انقلبت فجأة.. ذلك الألم غير مبرر على غيمة السعادة التي كانت تحلق فيها.

ذلك الوخز.. الاهتزاز، الضيق، أي شيء قد يُفسّره وهي متعبة منهارة لا تقاوم ذلك الاكتساح.. تحوّلت لعبة اليوم إلى جُرم واضح «لعبة الاغتصاب» لم تنتهِ بالضحك كما كانت النهايات السابقة. كانت مستاءة جدًا وهتفت: لا أريد المشاركة في هذه اللعبة بعد اليوم، يدقّق في وجهها المقطّب الذي أشبه ما يكون بقطة مشاغبة. هو لا يكفّ عن مداعبتها، لا يشبع من امرأة مثيرة وادعة خجولة، رغم بعض الوقت على زواجهما تأسره ويتعجّب من نفسه، لا يملّ منها وما كان ليكتفي بامرأة واحدة!

لكن سلسبيل شهية لدرجة يعجز عن كف أصابعه عنها ويود لو يعتصرها وأن يشعر بطقطقة عظامها.. ولا يرتوي من شهدها، يظل يتوثب وتتملكه مشاعر غريبة إذ يرى التواءات الألم في محياها فيحتويها بحب جارف ولكنّه

يتسبّب لها بالمزيد من المعاناة، كانت في البداية تستهجن تصرفاته. ومن ثم اعتادت عليه، ولكن الأمر بات يفوق قدرتها وطاقتها!

فأخذت تعترض وتكاد تتفلت من بين يديه وتُعرض عنه، وهذا أمر لا يسمح به أبدًا. وبات الأمر خارج السيطرة فهو سيد الموقف، وعليها الرضوخ لكلِّ ما يجود به عليها من مُتع غير متاحة لسواها من النساء.

عليها أن تكون ممتنّة لهِباته، وعليها أن تطالبه بالمزيد، هو لن يبخل عليها أبداً وهو لا يكتفي. يود أن تكون له بكلِّ خلاياها.. انحناءاتها.. كلّ شيء مسموح به وغير مسموح.

عليه أن يزيد من الجرعة كي ترضخ لرغبته المجنونة، عليها أن تستسلم، وهي لن تفعل إلا إذا كانت محلِّقة في عوالم أخرىٰ. ولكن هل تستحق سلسبيل مثل تلك المعاملة بأن تُحَوَّل إلىٰ لعبة مُدمنة.. وهل ستكتفي بعد اليوم؟ ألن تتغير هي أيضًا؟ ألن يكون هناك خسارة لهذا النقاء والصفاء؟!

عليه أن يخفّف وقع المعزوفة التي يراقص زوجته عليها وإلّا.. بعض العقل هل ينفع؟

ولكنّها شهيّة بطريقة لا تُقاوم!

تثير جنونه بكلِّ شيء، هل يُعقل أن يخلق الله -الجمال كلّه- في كيان واحد؟ كأنّها آلهة للحبّ، بل هي «أفروديت». متعلّق بها لدرجة الهوَس، حتىٰ إنّه قام بوضع كاميرا خفية دون علمها. كم كان يحلو له مشاهدتها وهي بين ذراعيه يقلِّبها كما يشتهي.

ويعلم كم أثارت العديد من الرجال من حوله رغم براءتها!

وما سر مفتاح فتنتها؟ وراوده ذلك الخاطر العجيب:

كيف ستكون سلسبيل بين ذراعي رجل آخر؟ هل ستكون شهية وعذبة كما يراها؟ هل ستتلوىٰ بين ذراعيه كما تفعل معه؟ هل ..

انتفض كمن لسعه عقرب. نهض بسرعة وهو يزمجر:

تبًا لها لو فعلت؟

حكّ ذقنه بشرود، واسترسل في خيالاته الماجنة:
ولكن لم لا! ربما سيكون الأمر ممتعًا أن يراقبها مع رجل سواه؟ ولكن هل ستوافق؟!
شعرت سلسبيل أن زوجها يعاني من علّة ما؛ فسهراتهما بدأت تتّسم بشيء من المجون والخروج عن المألوف، وهي ما عادت قادرة على صدّ انجرافه أو مسايرته، تعبت وهي تشعر أن هناك سمومًا تسري في رأسها ودمائها. خاصة عندما شعرت بصديقه يتودّد إليها، ويقترب منها بطريقة تتجاوز حدود اللياقة وتحرشاته المستمرة بها، وكانت تستنجد به ليدفع جموح صديقه ويصده، فوجدته يهز رأسه موافقًا. أن لا بأس في بعض المداعبات بين الأصدقاء، وهل تجد متعة في ملامساته كما يفعل هو معها!
فوجئت ببردة فعله، وجُنَّ جنونها أنه لا يغار عليها، وأنّه اندمج بالمجتمع الغربي وتمادى في ذلك حتى تخلى عن حرارة الدماء العربية. أيّ رجل شرقي يقبل أن تكون

زوجته لقمة لسواه! لكنّها كانت الصخرة التي دفعتها لاتخاذ ذلك القرار الذي كان يحثّ الخطى بشكل متردّد في نفسها، أنها قد وقعت فريسة لرجل يعشق نزواته، مهووس إلى حدّ المرض، لا يكفّ عن إيجاد وسائل لإشباع رغبات مجنونة ماجنة.

واعتنقت الصمت، وحاولت تجاوز بعض تصرفاته.. حتى عندما كان يتودد إلى «ثُريا» تلك المرأة التي كانت تصرخ بكلِّ حركة منها أنها جاهزة للركوع أمام عصام ليروي ظمأ أنثى غادرها العقل، وحكَمَتها الرغبة، ومدّت يدها لتعبث بما هو ليس لها.

كم كانت تكره ضحكتها المدويّة بعهر، ونظراتها القذرة، وكأنّها تدعوها لمعركة أشبه بعراك إناث الضباع. هكذا كانت تشعر باشمئزاز ولكنها لم تلقِ إليها بالاً بل سحقتها بلا مبالاة.. أدخلت لقلب عصام الحيرة.. أن سلسبيل لا تشعر بالغيرة.

فكلُّ ما كان يودّ معرفته إذا كانت زوجته تعتمل في نفسها تلك المشاعر أم لا؟ التهديد، الخوف، حبّ التملّك.. لكنّها كانت باردة كالثلج، لا ترسل إلا نظرات مبهمة مغلّفة بالاحتقار لثريا! التي كانت تموت رغبة وشوقًا، لكن من كان يمتلك زهرة النرجس ما له ولزهر الصبّار!

كان الملل يتسرّب إلى روحها، والعتم يزحف ليحتلّ نهاراتها، فهي لم تجد وظيفة تشغل وقتها وتنسيها مرارة الغربة، أسيرة البيت كانت، وهو لا يترك لها وقتًا حتى للقراءة، فهي متفرغة له بشكل كامل ويرفض أن تبتعد عنه لو لثانية.

لشدّة ما كان يضايقها، كانت رغبتها تزداد لتناول مشروبه الذهبي، والذي اكتشفت بالصدفة أنه يضيف له مادة بيضاء. كان الأمر مفجعًا، واستبد بها القلق.. ماذا ستفعل؟ هي تنهار وتنحدر إلى حيث يسحبها. مُذ تزوجها وهي تتأرجح مسحورة فاقدة لتوازنها، مسلوبة الإرادة. عليها

اليوم أن تقرّر.. كان يغطّ في نومه وقد سقطت كلُّ أقنعته وبدا وديعًا كعادته، وتسلّل الكرْهُ إلى نفسها للمرة الأولى، وشعرت أنه حطمها وبعثر كرامتها، وكأفعى تتخلى عن جلدها قررت أن تجمع ما تبقى من عزم وتلمَّ شتات روحها الضائعة هنا، فهي حتى اللحظة ما زالت تقاوم هذا الاندماج الغريب، وترفض الاستسلام أو الرضوخ لواقع مرير. وقبل أن تحدث تلك المصيبة المُسماة «حمل» هبّت لنجدة نفسها.. وما كانت تجرؤ على طرح أحزانها لأحد من أهلها. ولكنها اكتفت وعلمت في قرارة نفسها أنه لن يكتفي أبدًا. ولن يتوقف ..

إنه بحاجة لعلاج ولن يرضخ بل سيستمر في غيّه وانحداره وخشية أن تندفع لتلك الهاوية انسحبت بهدوء..

كانت تنتظر الفرصة السانحة وتتربص بها.. على أحرّ من الجمر.. أخبرها أنه سيسافر لولاية أخرى ليومين فقط لمؤتمر مفاجئ، ولم تكن الترتيبات تسمح أن تذهب معه،

شعرت بفرح مجنون، لكنّها كبتت صرختها بصعوبة.. كان يظنّ أنها تشعر بالضيق لسفره دونها، ضمّها بحب:

عزيزتي، لو كنت أستطيع لما خلّفتك وحدك أبدًا، فلتسامحيني. هل أنت خائفة؟ إن أردتِ اذهبي للنوم عند سمر زوجة أحمد، فهو ذاهب معي!

تربت على كتفه وتضمّه بقوة:

لا تخشَ عليّ. أفضّل البقاء هنا وانتظارك حبيبي.

التنهيدة التي رافقت كلماتها دفعته ليحدق في وجهها، كان يحاول قراءة روحها، أحقاً ستفتقده! أكلُّ هذا حبّ! أي شيء أصبحتِ سلسبيل!

وعلى مضض حملَ حقيبته وغادر، يراوده إحساس مبهم، حتى عندما لوّحت له مودعة وأطالت الوقوف على غير عادتها، شعر بالتوجّس، وبشيء ما أطبق على صدره، ولوهلة كان يودّ العودة عن قرار المشاركة بالمؤتمر والبقاء معها، ولكنّه نفض تلك الأفكار وعزاها إلى تلبّد السماء

بغيوم كثيفة وأجواء تنذر بمطر غزير..
ما كانت تتخيل لحظة جنونه إذا رحلت..
وقد تركت له رسالة ربما سيمزقها إربًا، وهي أكثر من يعلم أنه لن يغفر لها رحيلها المفاجئ! وكيف تجرأت وتركته وحيدًا، كرجل أحمق استغفلته.
استندت إلى الحائط بصدر متهدّج تعيد التفكير بقرار رحيلها، هل أناقشه في الأمر؟ هل سيتغير؟ أحبّه جدًا، ولكن هل سيفعل شيئاً من أجلي! لا أعلم.. رباه لا أعلم..
تحدّق بالرسالة وتعضّ شفتها، هل سيفهم ما أعانيه؟ لا أستطيع الاحتمال أكثر!
تهزّ رأسها، هل أمنحه فرصة أخرى؟
وقفت تحدّق بكلِّ شيء من تلك الأشياء المألوفة، مملكتها المحببة إلى نفسها.. المعلّقات على الحائط، تلمّست مفرش الطاولة المخرم.. أدوات الزينة، مقتنياتها ومجوهراتها..
تركت كلَّ شيء حيث هو، وغادرت بحقيبة صغيرة..

تصفعها الريح بقوة، وتسترسل ببكاء من يذهب أحبّته ولا يعودون!

اللحظة التي تنفّست فيها هواء الوطن، هي لحظة حرية تتوق إليها.. ومع ذلك كانت تشعر بالغربة.. لكن عليها المضي قدمًا.. وعلى أرض ثابتة. أما بالنسبة للآخرين، فلن تكترث أبدًا لما سيُقال عن عودة العروس من بلاد الغربة وهي عازمة على الطلاق، وإضاعة فرصة ذهبية من زواجها بطبيب محترم قدّم إليها السعادة والمال والجمال على طبق من فضة.

سيارة المطار تنهب الطريق المألوفة والتي لم تعد كذلك، شيء ما تغيّر في الوطن ربما هي من فعلت..

صوت «أليسا» وهي تشدو «عبالي حبيبي.. أغمرك ما أتركك.. أسرقك ما رجعك.. أحبسك ما طلعك من قلبي ولا يوم.. أخطفلك نظراتك ضحكاتك حركاتك.. علقن بغرفتي.. نيّمنُ ع فرشتي، أحلمن بغفوتي.. تا يحلى بعيني

النوم..

تغرق سلسبيل بدمعاتها.. تطرق الباب.. تتمنى أن تكون أمّها من يقوم بفتحه.. كانت تنظر إليها باستغراب، بفرح تبخّر ساعة ارتمت سلسبيل في أحضانها شاهقة ماما!

في الطرف الآخر كان الهاتف يصدح بلا كلل!

المحطة لا تنتظر أحدًا..

انتظرَته في المحطة ..كان قد أخبرها أنه سيتأخر لمدة ساعة. قررت أن تقرأ كتابًا تتشاغل فيه عن فوضى أهل المحطة. كم مضى من الوقت -لا تعلم- كانت غارقة في الرواية حتى أنهتها.

دققت النظر في الساعة.. مضى أكثر من ساعتين.

عجبًا! هل حقًا مضى الوقت دون أن تشعر! كانت أشبه بورقة يابسة عندما هبّت واقفة، تلفّتت بقلق ماذا يفعل؟ لمَ تأخر هكذا؟ ولما لمْ يتصل بها! وكلما هاتفته جاءها الرد لا يمكن الاتصال به!

آذنت الشمس بالمغيب، وشارفت على غياب مؤقت.. لملمت شالها وضمت ذراعيها وقد لسعها البرد، وغادرت المحطة وتركت قلبها على المقعد جزعًا.

«جمال» لا شيء يعيقه عنها، لا شيء! لم تحتسِ كأس النوم كبقية البشر ظلت مُسهدة مشغولة به ! في مدن الغربة كيف لها أن تعرف!

كانت تجلس كعادتها، تحمل رواية تقرأ فيها. وأهل المحطة كدأبهم لا يكفّون عن الحركة وكأمواج البحر يتدفقون، كالمد والجزر يتدافعون، كلٌّ في شأنه وعلى عجلة من أمره.. وجوه ضبابية الملامح، مشاعر رمادية على الأغلب، لكنّ البعض يُشعرك بالمتعة وهو يغالب نفسه لإخفاء شيء يعتمل في داخله، ويعانق سعادة واضحة فيبدو وكأنّه يطير على الأرض.

والآخر يجرّ أذيال خيبة وحسرة ويدفع حقيبته كأنّها عبء ثقيل هدّ كاهله! والبعض لا يكفّ عن تجعيد جبينه بحركة غاضبة -عدم الاقتراب من هؤلاء خير وسيلة للنجاة من شذرات غضب قد تلحق بك على غفلة لا لسبب إلّا لأنّ البركان على وشك الانفجار- وأجمل ما في المحطة، تلك المشاعر الجياشة والتي تقترن دائماً بعناق حار، وأحضان مشتاقة وصيحات للفرح بعودة الغائبين.

لطالما كانت سارة تعشق رصد تلك المواقف، لتعود وتغرق

ثانية لكتبها ودفاتر ملاحظاتها. وكثيراً ما كان يحلو لها أن تدونها في المحطة.

ملاصقة لذات المقعد القديم الذي تآكل من عوامل الطبيعة، لكنّها كانت تفضله وعلى علاقة حميمية معه، وكم كانت تتذمر لو شاركها الجلوس عليه شخص آخر.

حتى عندما تمَّ طلاؤُه مرة، شعرت بالضيق لتغيّر معالمه التي تعشق.. وكانت تتمنى أن يكلح لونه ويعود كما السابق.. لم تكن بأمنية سريعة التحقّق ولكنّه بدأ يعود لعتقه فساورها شعور بالارتياح لذلك.

ظِلٌّ.. كان يرتسم على صفحات الكتاب فتراقصت الحروف.. كانت تودّ لو يبتعد قليلاً، ليقع النور على السطور مجددًا.

أشارت بيدها محاولة صرفه دون أن تنظر إليه قائلة بهدوء:

عذراً هل تسمح ؟

ولم تكمل الجملة إذ بادرها بسرعة: وإن لم أفعل!

هو جرس يقرع على غير ميعاد كأجراس ليلة الميلاد..
لتأخذ الترانيم بالعلوّ هادرة على أرصفة الروح المثقلة بوجع الانتظار.. وتتنهّد الحقائبُ شوقاً للّقاء!
رفعت رأسها للمرة الأولى وحدّقت به، عفوًا!
هل يصغُر الكون فجأة ليتخذَ ملامحَ وجه أدركته يد الزمن، ومسحت عليه وتركت بعض الأبيض المتوهج عند الذوائب.. راسمة بعض الخطوط أسفل العينين ؟ هل يُعقل أن يرتسم الوطن بتضاريسه على جبهة إنسان، أخذه الغياب بعيدًا ليعود ثانية كنورس هاجر وعاد إلى عش تركه ذات مرة!
عقد حاجبيه وعضّ على شفته بتردد: هل تأخرتُ عليكِ؟
وعندما ظلّت على صمتها تتأمّله وكأنّها تراه للمرة الأولى في زمن آخر، لبعد كوني لم يسبق لها وأن مرّت به! وكأنها أصيبت بلوثة، وربما عقدة في اللسان من يدري كم سيطول أمدها؟ فنظراتها كانت غريبة غارقة في دهشة، كأنها تركب

شراعًا هبّت الريح وحملته إلى محيط بعيد. همس:
كنت أقول في نفسي ترى هل ما زالت حيث تركتهُا «قلبي معكِ».
سمح لنفسه بالجلوس إلى جوارها، كطفل معاقب كان يحدق بتوسلٍ خفي أن تُعيره انتباهًا.
بدا صوتها كصدى صوت كروان جريح:
ما زلت أنتظرك.. كم تأخرتَ؟ يمضي الوقت ولا يُحسب لي فيه لحظة سعادة، بعيدًا عنك أي حياة أرجوها؟ كعاشق تتقن فن الغياب أنت وكعاشقة تتقن فن الوجع أنا.. وللمرة الأولى نتفق !!
تجرّأ.. مدّ يده يبحث عن يدها، أي شيء قد يكون هذا -شيء يشبه الاعتذار-.
كلماتكِ تنساب كفراتٍ يروي ظمأ الروح العطشى، دون أن تعانق الشفاه قطرة ماء.. وتسكنين القلب!
يتهدج الوجع «هل يعتذر منها»!

لم تسمح لنفسها بممارسة طقوس الكلام منذ أمد بعيد، فما جدوى الحروف إن لم تكن لشيء يستحق!

عندما اعتنقت الحزن وما كفّت عن صمتها إلا بصرخة استغاثة! بعد فوات الأوان نبتت أشجار نخيل حيث صرخت وطرحت أحمالها.. كم تغير المكان!

«لو كانت أحلامي قد ماتت في فصل الإنبات، فأيُّ أمل كي تزهر في فصل تساقط الأوراق»؟

كمن أطبقت ضلوعه على بعضها، هزّ رأسه يطلب الصفح ويخجل أن يقولها بملء فمه:

آفاق لم تكوني معي فيها، باهتة ولا شك ! إن لم أجد نفسي في وطني فأي أرض في الدنيا قد تسعني؟

أنتِ لي وطن! كانت يدها قد وجدت ملاذها بين يديه، ترقد قريرة العين والفؤاد. لكنَّ قلبها كان يصهل بالألم، مسحوقة حتى العظم وهل يجدي الكلام؟ تسافر عبر ملامحه الجذابة، ضحكته التي تُعشق، كم مشتاقة هي كي

ترقص على وقعها !

بعده كلُّ الأشياء تختلف.. فالياسمين ينزوي بقلق، وأدوات الزينة تعتكف في عالم الرهبنة، والألوان تضمحلُّ بغرابة، وكأنّه أخذها معه حيث رحل، والعالم كلّه يصبح خاويًا، وما أصعب انتظار من اعتاد الرحيل وأتقن فنّ الغياب.

هل تسحب يدها التي لم تعد تملكها وقد بدأ بالنزوح إليها، ولثمها مرات ومرات.. تمر بها شفاهه الدافئة، ويوشوشها فتأخذها لوعة ووله، شوق له تعاريج حدّ السماء التي بدت وكأنها تمطر ياسميناً وبنفسجاً.. سرى الحب في عروقها وبدأ ينبض كصحوة غائب عن الوعي، ودبّت في أوصاله الحياة فودّ لو يطير. لكنّها ظلّت جامدة كتمثال من رخام، أخذته الدهشة من معاول الفنان المستميت لإظهار مُلهِمته حدّ الكمال!

خذلته ملامحها؛ فهمس: كنت أعلم أنَّ هذا المساء يحمل في جعبته أشياء لا تحتملها ذاكرتي المثقوبة. ولكن السؤال

الذي شقّ صدره وحزّ قلبه بالألم لماذا! أما زال الطريق طويلاً يكتنفه العتم!

تأخذها لهفة لتبعثر، هذه الغابة السوداء المضيئة بأنجم تفرقت هنا وهناك بشعره المسترسل، وكأنه سيدفن رأسه في حجرها، ولا يجرؤ لأنها ارتدت قناع لا مبالاة يكاد في حقيقته أن ينصهر بحرارة الشوق.

كشجرة لبلاب تتقن التسلق «أنفاسها المتسارعة» وتنثر وجعها كالجوري الأحمر، ويتململ بعذاب السنين الضائعات.

موجوعة منك ..

عندما تتعمد الصمت، وتعتزل واحتك مفارقًا كل بهجة تشاركناها، وتمر كطيف آثر الرحيل وترك بقاياه كشاهد أنه كان ذات وجع ومضى !

رحلة عمر ربما كانت تلك اللحظة التي رفع فيها رأسه واقترب منها أكثر قائلاً: أرأيتِ كيف يخدعنا السراب

أحيانًا فنركض خلفه حتى نتهالك عند أقرب كثيب؟ وربما يطوينا الهم فيغرقنا أمل واهم للنجاة .. لكنه لم يكن سراباً بل كان حقيقة.

حلّ بها التعب فجأة، نزعت يدها بنزق، وهمست على حين بؤس:

فوجئت بعودتك، كنت بدأت أعتاد غيابك، ومضيت أفكر ترى كيف سيكون لقاؤنا ؟ أيغسل دمع الفرح لوعة التهجد في محرابك!

يلحق بيدها الهاربة، ويعيدها إلى الخافق النابض:

هل تأخّر الوقت؟ قلبي واجف، أعلم أنّك لن تخذليني، إياكِ أن تقولي لا ضاقت بي الدنيا ولم يعد فيها أمل.. رحل عنها الهواء!

جزعت للهفة ظنتها يومًا كاذبة.. تحبّه، تشتاقه، تصدّقه، ولكنها تأبى أن تفعل، مرغمة هي.. بمرارة الكون المطفأ بعد رحيل الأقمار إلى مجرات أخرى. هل يشرق النور ولو

من بعيد !

تنتحب:

عودك كالأوراق المتساقطة.. سرعان ما تعبث فيها الريح وتدوسها.

أقدام مجهولة. انتظارك وعودتك أمر بات لا يعنيني!

أشاحت ببصرها إلى البعيد وعانقت آخر ضوء للمغيب ليبدأ من جديد في مكان آخر كغسق.

غير مصدق الهراء الذي تفوهت به:

لا أصدق حرفاً مما تقولين. ماذا تفعلين هنا إذن، من تنتظرين!

تواجهه بقوة: لا تفتح المزيد من سراديب الوجع خذ المفتاح معك.. لِمَ تتركه خلفك كلما غادرت؟

يا همس البلابل، يا وجع النايات، يا عناق الزنابق، وعودة النوارس المهاجرات، يا كل الضحكات.. كيف لها أن تغفر؟؟

ما زال ينتظرها، وما زالت تتمنّع!
ما زالت على هدوئها، وصمتٌ يسبق العاصفة قبل مجيئها..
متى ستثور؟ كان ينتظر على قلق على أمل.. على حين ميسرة.. وينتظر!
هل وصلتْ لقرار؟ ليتها تفعل.. كلبؤة أخذت تذرع المكان كمن يتربص فريسة على حين غرة.. وقفت..
هو شهيق، أم زفير ندى، أم عبير ذاكَ الذي أرسلَته؟ وسكنتْ تفاصيل الوجه المستميت لهفةً وحبًا كعطر سكن الجلد، أخذته غفوة حب كاد يسقط وجدًا.. أين كان هذا كلّه؟
وتعود ثانية كلُّ الرعشات الجميلة، وهي ترفع إصبعها شارحة ولا تعلم كيف غاب بين شفاهه يعانقه بلطف ليذوب اللحم والعظم بشهد الرّضاب.
يمرّ بها كهزّةٍ تجتاح الأرض العطشى لتزهر فجأةً كلَّ سنابل الشوق محمّلة بالسكينة والسلوى، ونزلت كالبَرد على قلبها

المتأجّج لوعة «هذا وطني الذي أحب». كيف لها أن ترفض عودة الطيور إلى أعشاشها رغم زمن الغياب، رغم تساقط قمصان الفرح التي قدّت من دبر، وأزرار العمر التي تبعثرت ولمّا تسأله بعد أين كنت؟

«وهمست وهي تغلق عينيها عن صفحات الغياب الطويل، لتعود لذات السؤال»:

انتظرتك طويلاً وطويلاً.. انتظرتك، ما الذي أخّرك عني؟ أشعر باضمحلال في نبضات قلبي، قد أعياني التعب، طال غيابك يا حبيبي! أكاد أموت شوقًا ولا عجب!

كفهدٍ وجد ضالّته المنشودة فأخذها بين ذراعيه، وحطّتْ على كتفهِ كحمامة أرستّ دعائم عشّها، وتعانقت خفقات القلوب لتعزف سيمفونية اللقاء. يزفر الوجع ويرسل نحو ذكرى ضبابية لازمته سنوات:

كنت أصارع للعودة، أشجّ صدر الظلام بخنجر طاعن في العتم، لأخرج لنور. حقيقة أعجزني البحث عنها.. وهل

يُلام من فقد الذاكرة!
شهقتْ: أيُّ شيء حلّ بكِ؟
مسحَ علىٰ وجهها:
سارة حبيبتي، لست أدري كيف حدث ذلك؟ وكم مضىٰ من وقت؟ كلُّ شيء توقف عندما كنت أسارع الزمن كي ألتقيك. سمعت صوتًا حادًا، وحلّ العتم علىٰ كلِّ شيء أعرفه، وما كنت لأظنّ إلّا أنّ الموت قد سبقني إليكِ.
ما كان لشيء أن يعيقني عنك.. لكنّه القدر!
هل تكفي لمسة يدٍ لإزالة كل ما علِق من أوهام وأحزان وتراكم سنوات؟ وُشِمَتْ بالدّمع، وتكالبت كأصداف بحر.. ضاق بها حوىٰ.. لفظها فتساقطت تباعًا..
هل تكفي .. ربما لا؟
ولكن هل يهم؟
لا شيء سوىٰ أنه عاد أخيرًا..
وأخيرًا عاد.

اعتصرته بقوة كمن يخشى عذاب الرحيل همست:

مُعتّق كأسك التي سقيتنيها حتى الثمالة، فرغتْ.. هلاّ أعدتَ تعبئتها..

قد أدمنت وجعك أسكرني..

كيف لي أن أحيا دونه..

وعلى ذات المقعد..

كانت الأوراق تحكي قصة عاشقة سكنت المحطة.

وفي الأفق..

عادت الشمس من جديد

أم إنَّ ذلك الوهج كان وهج حبٍّ..

ظلَّ يتّقد ويتّقد؟

شظف العيش...

(١)

الرجل الذي طرق كلَّ الأبواب المغلقة، ولم تفتح له.. «بالَ» على شهادته الجامعية»، ولم يتوانَ عن ارتداء البدلة البرتقالية، وقيادة سيارة النضح الموسومة بحكمة «اشتغل فيك ولا أحتاج اللي زيك» ليكفَّ يده عن السؤال والحاجة للآخرين.

أخيرًا استطاع الضحك من سخرية الحياة.

(٢)

الفتى الذي كان يحمل أكياس القمامة، ويُخلّص الطرقات من قاذوراتها، وتفوح من قفازاته رائحة كريهة. كان في داخله أنقى وأطهر من بعض الذين يرمقونه بازدراء، وهم يعبرون الطريق التي اجتهد في تنظيفها، لتليق بأحذيتهم اللامعة أكثر من وجوههم الكالحة.

(٣)

عامل النظافة الذي أفنى حياته في لملمة الأوراق المتساقطة، أكياس النفايات المبعثرة .. أزكمت أنفاسه الروائح النتنة .. أقسم من كانوا يحملون نعشه أن هناك رائحة مسك تفوح من كفنه؛ ولا زالت الرائحة تعبق في ثنايا جلودهم !!

كانت ميتةً تدعو للحسد لمن كانوا يحتقرون وظيفته في الحياة!

عطش القناديل..

(١)

نقص..

المرأة التي أطالت الوقوف أمام المرآة، رمت ريشتها أخيرًا، واستدارت بعد أن أثارت زوبعة عطرية ضبّبت المكان .. أخذت الباب بفتور معها وغابت.

عندها صاحت المرآة: وأخيرًا حلّت عني ليتها لا تعود !

(٢)

غرور..

كانت تثير في المكان ضوضاء، وتبعث بسلبيتها المعهودة.. توتّر الجميع وهي تلقي بملاحظاتها غير الضرورية والمتكلّفة التي تثير استياء العاملين. خاصّة عندما تُشير بإظفرها المطلي بعناية مفرطة..

كانت تهتف بعصبية: أين كأس الماء خاصتي؟

وبعد أن صاح المخرج: ١،٢،٣...

«ستاند باي»، تصوير.

رفعت غرّتها على عجل، وبقدرة عجيبة سقط قناع التجهم وارتدت آخر، وبانَ صف أسنانها الناصعة الكريستالية -والذي كلّفها مبلغاً طائلاً من المال- ورسمت ابتسامة ساحرة:

أعزائي الحضور.. السادة المشاهدون.

واسترسلت في تقديم ضيفها.

شعرت بجفاف في حلقها، فمدّت يدها لترتشف بعض الماء.. وإذ فعلتْ؛ صاحتْ بأعلى صوت فزعة.. وأسقطت الكأس لتقع في حضن الوزير «حشرة»! ولمّا بهت الجميع؛ تدارك الضيف نفسه بامتعاض.. ورفع المدعوّة «حشرة» بيده.. وقال باحتقار: هذا رمشك الاصطناعي يا آنسة.

(٣)

لكنّها أمنية..

كان غارقاً بمقعده يتأمّل سماءً بلا نجوم.. حملتْ فنجانه

ووضعته إلى جواره، همست بداخلها ليته يقول: إني قمره!
لكنّها أمنية..

(٤)

من ورق..

كانت منكبّة على أوراقها، غارقة مع أبطال قصصها، فتارة تتنهد.. وتارة تتأوّه.. وتارة تزمُّ شفتيها بحنق، أو تفرك جبهتها كمن أصابه صداع مزمن.

حدّق بها.. كانت امرأة، ولكن لم يستطع أن يفسّر مشاعره نحوها! أما زال يحبها؟ أم باتت جزءًا لا يتجزأ من تفاصيل حياته التي اعتادها.

تحرّك قليلاً نحوها، لم تنتبه، كانت غارقة..

تراجع وعقد حاجبيه.. هزّ رأسه، لا فائدة!

كانت امرأة تنبض ولكن على الورق!

(٥)

استعباد..

يتأملها بحبٍّ تنتابه شفقة أقرب لحنان أبويّ.

يعانقها فترنو إليه، ويتكئ إليها فتوسّده ذراعيها..

كبُرت بين يديه، ترعرعتْ ونمتْ، وغدتْ جميلة باسقة مشرئبة واثقة عبقة.

وصارت محطّ أنظارهم وتمتد الأيدي لمصافحتها، ومحاولة الاقتراب منها والتفيُّؤ بها.

كانت باهرة متسامحة معطاءة، ووهبت الجميع من حبها ومنحتهم بياض قلبها فغدت مزارًا لهم.

لوهلة كان يحدق.. يتلمظ كيف كانت! وكيف صارت!

هل من مكان له بينهم؟ وقد ضاع كل خيط جمعهما في نسيجهم المتشابك من حولها!

كيف لها أن تنسى فضله؟

يشتاقها ويكره فرحها بكلِّ هؤلاء المعجبين.

وفي لحظة تسلّل الليل إلى سماء قلبه التي سكنها القمر، ورفض أن يرحل.
استكان إلى صمتهم وغفلتهم و..
حمل فأسه واجتثّ جذور فرحها واغتال أحلامهم، فتساقطت حبّات الياسمين دامعة الواحدة تلو الأخرى.
الجذع ما زال واقفاً يحدّق بيده الآثمة..
وصمتَ الحفيفُ إلى الأبد... سقط إلى جوارها معانقًا مشدوهًا.. ثمَّ ذوى!

(٦)

وعد مؤجل..

المرأة التي تسلّقت كلَّ درجات النجاح وعلت، وقفت تستذكر كل المحطات التي وقفت عندها.. ولم تنتظر أن يهزّها شيء من عجب: أين تراه يكون فارس أحلامها؟ في كلِّ حضور، وكلِّ تكريم، تجلس باحثة عنه بين صفوفهم.

متأمّلة في كلِّ مرّة أن يكون حاضرًا، ربما يؤجّل إعلان نفسه وكأنّها كانت تعمل على بثه أشواقها، وتجتهد في رسم صورته التي خلتّ من الملامح. ذلك الرجل الذي سلبها لبها وتستمر في البحث عنه دون كلل.

وكلّما تقدَّم بها السن تقول في نفسها: ما زلتُ غير جديرة به، لا بدّ أن أصبح نجمة تليق به، لا بدّ أن نلتقِيَ.

الرجل الذي كان يتأملها ويغوص فيها، وينتقي ما شاء من كنوز خبأتها عن الأعين.. ويحاذر أن تراه بين الصفوف يتعمّد الانزواء ويغادر على عجل..

لمحت ما كانت تبحث عنه لسنوات طوال، وقفت أمامه بلهفة، عرفته، هو رجل كتبت له كل شيء رغم جلوسه في الظل، مكتمل الرجولة هو حلم كل امرأة توّاقة..

العقل، هل يتوقف عن العمل؟

هل يختفي النور في عيون مبصرة؟

هل تغيب الشمس لحظة شروقها؟

هل حقاً يهم كل هذا؟

أوليس هذا غريبًا؟

هو رجل طال انتظارها له!

بعتاب بالغ مدّت يدها..

قدّم نفسه بتردد وثقل على كرسي مدولب!

(٧)

طلاق..

كلُّ تلك العلب الفارغة الملقاة هنا وهناك..

الميزان الذي أثقل كاهله من الوزن المتذبذب..

الوسواس الذي جعل الحياة معها أشبه بالمستحيلة..

دون أن يدري وجد الحل واستقر مقامًا.. على مضض

فحصلت على الوزن المثالي بعد عناء!

(٨)

بين الحب والمال فجوة..

وحيدة جلست.. وقهوتها تحرّك ملعقة لإذابة مكعبات السكّر، والتي عجزت عن إزالة حجم المرارة التي سكنتها. تتأمّل عقارب ساعة التي لا تتوقف، عمر مضىٰ علىٰ عجل، اختيارات خاطئة.. قرارات حاسمة عنوانها الندم..

تتلمّظ غيظًا وقهرًا.. ربما حسدًا! لما آل إليه حالها، وهي التي تتوق إليه وتتحرق شوقًا! كم كانت علىٰ خطأ! وأين يكون الصواب إذًا؟

تمرّ صبيّة تحمل بيدها كيسًا يتأرجح بسعادة مع رنين لأساور من ذهب، ضحكة شاسعة ملأت وجهها فرحًا، وهي تعانق أصابعه وتميل إليه بدلال.. مشهد يثير في نفسها الغثيان.

رغبة تجتاحها لانتزاع الضحكة التي كانت تود!

تبًا.. أين لها أن تعثر علىٰ حب مشابه، وقد تأخر الوقت!

(٩)

لا ينطفئ..

كانت تخبر الكون كلّه أنها اعتادت غيابه.. وأنها أصبحت امرأة ثلجية لا يحرّك سكونها رجل ينبض بالحياة.

تسلّل إليها خلسة ذات حلم.. أذهلتها زيارته المفاجئة.

مدّ يده، هرعت إليه.. عانقته بحرارة وبشغف الحوريات..

احتوته..

كانت المخدّة تتصبب عرقًا..

وعاد الثلج إلى القلب المفجوع، وانسابت دمعة حارة.. وهي تعصر الشفاه الظامئة.

آه منك.. أكان عليك أن تموت!

(١٠)

ما زالت واهمة..

يكتب لها، يستجديها حبًا..

يصفقون له..

تتقن فن الغياب هيَ.. وكلما أمعنت في غيابها توهج شعره صبابة، تزداد مبيعاته وتسمن جيوبه وتنتشي لنجاحاته هو يعتلي المنصة وتبقى هي في الظلال .. مغيّبة، سعيدة إنها ملهمته!

(١١)

عقوق..

ما كان أغرب جوابه..

وقفت مذهولة تعتريها مشاعر من أخذه الطوفان على غفلة..

خارت قواها..

وهي تردّ بصوت نزق كمن يلفظ أنفاسه..
الأخيرة:
لا أدري!
وطافت مع كلِّ الأشياء الغارقة.. ذكرى الألم المبرح، المعاناة..
سهر الليالي.. الحبّ الذي ما انفك يسلبها راحتها، وتقول هل من مزيد؟
ليأتي ويحدّق فيها بتحدٍّ، لماذا أنجبتني؟

(١٢)

ليتهَ يتزوج بأخرى..
أعلنتها بصوت مسموع أنها تعبت من وجومه.
من تعابير وجهه التي لا تُفسّر..
عدم رضاه رغم كلِّ القناديل التي أشعلتها على مدار سنوات طوال.

تعبت من كونها مجرّد «حدثٍ» مرّ بحياته وظلّ كأمر مفروض عليه، من كونها أشبه بقطعة أثاث بالية قد يركلها بقدمه، وقد يتجاوز عنها.

أجل أضناها القلق.

أحرقَ أخر أوراق أنوثتها..

وظل متسمّراً على مخاض فرح عسير أبى إلّا أن يكون مجرّد أمنية مستعصية.

فكفّت عن المحاولة!

(١٣)

خلف ستار..

بأحلى حلّة يجلس مشعاً بطراوة ودماثة.. حضورهُ آسرٌ، ينثر الورود.. يوزع الباقات.

قلّما تخلى عن هدوئه؛ وقد يعتقد البعض أنه يعمل قاضياً لرجاحة عقله.. لسانه.. تفكيره.. سعة صدره.. باختصار

كان أشبه بحلم .. صديق للعديد من الإناث وكان محطاً للثقة، كثير التواصل والنصح.. بريده متخم، وهاتفه لا يتوقف عن الرنين .في عالم آخر كان يحلّق عندما قاطعته زوجته فجأة : العشاء جاهز ألن تأتي؟

دع الـ «فيس» لدقائق، وشاركنا.

صاح بوجهها: اللعنة عليكِ اغربي عن وجهي دعيني وشأني .

هزت رأسها بأسف:

لا يتوقف عن الكذب... إنه مدمن... لا فائدة!

(١٤)

خائن..

كم قد تختلف حياة عاشتها في كنفه متكئة على كتفه توسِّده ذراعها منجبة أولاده، حافظة عهده مصدقة وعده، أن يشيخا معاً، أن ينسى فتذكّره أن تسهد فيؤنسها. لكنّه غادر

مع أول امرأة امتدحت ذوائبه البيضاء؟
وهي ما زالت تطرق أبواب الأربعين..
ثمّة عمر طويل حتى الشيخوخة!

(١٥)

قناع..

عندما وقف بسيارته اللامعة، رغم أنها ليست «باهظة الثمن» وسبقته رائحة عطره الذي كان يغالي في رشه وكأنه المتحدث الرسمي ليعلن عن وصوله.
ناهيك عن جاكيته الجلدي ونظاراته وخطواته الواثقة.
تدافع البعض للاعتقاد أنه رجل جدير بالاحترام، وأنه رجل المهمات الصعبة!
الذين يتعمّدون التمثيل حتماً سيخطئون يوماً في أداء دورهم.
لم يستطع يوماً أن يخدعها ببريقه الزائف، ولا بتكلّفه وهو

يُجهد نفسه، بتلك الهالة الضبابية.. كأنّه حمل تاج الملائكة.
كانت تعلم جيدا أنه لا يُطاق وأنه أجوف. وشعرت بغصّة عندما علمت أنه لسوء الحظ جارها.
والذي كان متباهياً جداً رغم صلعته التي لا حدود لها..
عرفت أن أيام الهدوء طارت بلا عودة.
خاصة بعد سقوط بعض أقنعته الواحد تلو الآخر مع الأيام.

ثمّة شيء يحترق..

منشورة في مجلّة عجلون الثقافيّة/ العدد ٣ للعام ٢٠١٢م

لم يكن ذلك الأمر في الوارد أبداً، وليس من الأشياء التي قد تخطر بالبال أو نعدّ لها العدّة عندما نوقّع أوراق الاقتران الأبدي.

العلاقة الأسمى جُلّ ما قد يخطر لنا أن نضع أسامينا الجميلة لنشاركهم الحيّز الصغير ذاته، والذي يعني أننا قد حشرنا أنفسنا في زواياهم وحناياهم.

أجل عقد شراكة وسُكنى جيران الروح والجسد، حيث نُنعم بالدفء والحب. ومن هنا نود لو تزداد هذه العلاقة متانة وقوة. أن نشدّ أواصرها بتلاحم وتناغم يهدينا في لحظة مجد مشترك بذرّة حبّ عظيم تتنامى مع الأيام. نترقبها لحظة بلحظة تمر ببطء ولهفة، وكلّما مرّ الوقت زادت الأشواق وزاد القلق.

تمر بي ما بين سؤال وسؤال، كيف السبيل، هل من أمل، متى يحين الوقت؟

هي لهفة مليئة باللذة حتى تأتي ويأتي معها كلُّ فرح الأرض

لا شيء يسِمها، لا شيء قد يعطيها حقّها، لا شيء البتّة.. لا شيء.
تختلط دموع الفرح بالحمد والشكر والرضى..
يا إلهي، لا شيء يعوّض هذه اللحظة.. هذا الشعور.. لا شيء!
ولكن لماذا..
لا أستطيع أن أكون أُمّاً كسائر النساء لِمَ؟
لا أصدّق أنني عاجزة أن أعيش هذه الفرحة.. أن أسمع كلمة ماما من صغيرة تنادي بدلع ماما أريد ضفيرة مع شريط ملون.. ماما اعقدي لي حذائي.. ماما أريد كعكة.. ماما أشعر بالبرد ضميني.. أشعر بالخوف شاهدت كابوساً ماما دعيني أنام في سريرك الليلة.
ماما احكي لي قصة! لِمَ لا أستطيع أن أكون أمّاً!
تحدّق بشريكها وكلّها حسرة ولهفة، من تحبه واقترنت به لا يستطيع الإنجاب! فرصة ذلك ضئيلة، حتى وإن كانت

المحاولة مع أطفال الأنابيب قد يكون الأمر محالاً.
مدّت وفاء يدها تمسح حبات عرق انسابت على صدغيه وهمست:
أحبّك رغم كلِّ شيء، وحبّي لكَ أكبر من رغبتي لأصبح أمّاً.. أرفض أن أكون أمّاً لغير صغارك.. وقبّلت جبينه بخفة تقلّب وهمهَمَ: حبيبتي!
رسمتْ ابتسامة على شفتيها.. غمرته بذراعيها.. مسحتْ دمعة انسلت فجأة.. تنهدتْ: لأجلك سأرضى أن أظل أرضاً بوراً.

انتهى



- عضو رابطة الكتّاب الأردنيين.

- صدر لها:

* أوجاع البنفسج، قصص وخواطر «2012م».

- شهادة تقدير عن المشاركة في بشاير مهرجان جرش «2012م».

- حاصلة على درع التكريم، وشهادة تقدير عن مبادرة أدبْ لتجمع ناشرون للثقافة والعلوم «2012م».

- شهادة تقدير من الرابطة الإلكترونية للكتّاب والمفكرين الأردنيين للمشاركة في مسابقة القصة القصيرة والومضة الحكائيّة لعام «2013م».

- شهادة تقدير من الرابطة الإلكترونية للكتّاب والمفكرين الأردنيين عن المشاركة الفاعلة لدعم أنشطة الرابطة، منحت بمناسبة اليوم العالمي لتحديث الحالة «2014م».

hananbasha80@hotmail.com





عمان- شارع الملك حسين- مجمع الفحيص التجاري

تلفاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦٤٧٥٥٠ خلوي: ٠٠٩٦٢٧٩٥٢٦٥٧٦٧

ص.ب: ٧١٢٧٧٣ عمان ١١١٧١ - الأردن

E-mail: dardjlah@yahoo.com

www.dardjlah.com